رواية

جهاد عقيل

عبور سمعان

جهاد عقيل

عبور سمعان

رواية

الإهداء

إلى خالدة ... الحب

ليس المكان هوالفخ إذ يصيرإلى صورة،ففي الذاكرة مايكفي من أدوات التجميل لتثبيت المكان في مكانه،ومايكفي لترتيب الأشجارعلى ذبذبةالرغبة،لاالأنه فيناوإن لم نكن فيه،بل لأن الأمل هوقوةالضعيف المستعصيةعلى المقايضة . وفي الأمل مايكفي من العافية لقطع المسافة الطويلة من اللّامكان الواسع إلى المكان الضيّق . أماالزمان الذي لم نشعربه إلاّمتأخرين،فهوالفخ الذي يتربصبناعلى حافةالمكان الذي جئناإليه متأخرين،عاجزين عن الرقص على البرزخ الفاصل بين البداية والنهاية .

محمود درويش / في حضرةالغياب

أتمدد الآن في الجزء المتاخم لجدار البيت ناحية الغرب ، ذي البقعة البهية التي التهمت سنوات عمري الأولى ، يفصلني جدار بازلتي مدبب ومكحل بطين ممزوج بقش باهت اللون عن جذع شجرة التوت الهائل ، منكّس ً على وجهي ، مرميٌّ كشيء غير قابل للضوء ، يسمل عينيّ هباب ناعم لتراب تراكم على الحواف و يختلط ببعض رمال هاربة من إسفلت الشارع ، ثمة رائحة نفّاذةلبول الرجال وهم يحيدون عن الشارع ويقضون حاجتهم وقوفاً ، رائحة ما تزال تعلق برطوبة الجو المحيط . بدا لي أن تلك الرائحة هي ما يجعلني أعتقد حتى الآن بأنني ما زلت حيّاً .

الطلقات توصد المساء ، تُبعثر الصمت ، تدوّي ، ثم يمتزج دويّها مع صوت خافت لأغنية تطلقها(بنت الجيران) ؛ ربما تعدُّ طعام العشاء لبقيّة أفراد الأسرة ، أو ربما تنشغل بأمرٍ آخر ، الذي يحدث أنني ما زلت هنا و أحاول جاهدا تحريك أي جزء من جسدي .. دونما جدوى ، انتبهُ الآن : الأصوات كذلك تشير إلى أنني مازلت هنا .

الليل يدخل محمّلاً بنباح بعيد لكلاب بعيدة ، و مترفاً بأصوات ضاجّة لسيّارات تعبر الشارع العام ، تتواشج الأصوات مرّة أخرى ، أغنية خافتة لجمع من الرجال ، بدت لي أغنية حماسية ، لكنني لست متأكدا إن كانت تنبعث من آلة التسجيل لدى (بنت الجيران) أم لا ، أصغي ثانية تنفصل الأصوات ثم تمتزج وتتوقف أخيرا .

ثمة أشياء تروى :

يمكن للوجود أن يوجد بأكثر من صورة ، دون أن يمتلك قابلية الروي .

لست جنّياً حتى أفعل ذلك ، هل ما زلت أنا ؟ خطر لي ذلك عندما تراقص ضوء مصباح الشارع قليلاً و رمى بي في العتمة ، هل هذا أنا ؟ أم أن وجها آخر هو الذي يتطاول فيلفّق وجهي . ،

ثمة احتكاك ناعم لقدم صبي عارية تحفُّ الجذع الخشن لشجرة التوت ، تتفتت حواف التشققات الناعمة تحت الزحف المتواثب للقدم الصغيرة ، العالم يبدو صغيراً بعيني طفل يجلس على غصن قوي لشجرة توت عالية ، يطوّح بقدميه سكينة الهواء وينثر أعقاب (الكبوش) الوردية في فضاء قذر نحو الأسفل ، العالم من هناك بدا جميلا رائقا ومسكوناً بلون غروب مائل للأحمر وموشى بخيوط صفراء ذات بقع برتقالية . ،

لم أعرف من أطلق النار ، كنت أفكر بالذين تذهب الرصاصات إليهم ، نحوي أم نحو السعير المتفاقم للكلاب الشاردة ، بت أعتقد بأن احد المقذوفات قد استقرَّ في خاصرتي ، لأنني أحس بأن فتحة باردة تخترقني ... الحقيقة أنها فتحات ؛ يتقلّص وجهي ، ربما استسلم لنداء الحلم في إحدى جلسات يقظتي أمام (جدارسمعان)بينما ألتقطُ الكلمات التي يبعثرونها بخفوت وهم يعبرونني و كنت أرى ظلالهم و هي تميل إلى العشب ثم تنبعث بخاراً يصعد منها وهي تنبت أسفل الجدار ، وكنت أود أن أداعب أوراقها الخضر وأمسح برفق وجناتها الرطبة ، لكنني لم استطع أن أمد يدي ، رخوة يدي ، بي رغبة بالنهوض ، أن انفض هذا الخدر والتعب عن جسدي و أمضي نحو اتجاه ما .. نحو نهار ما . ،

ثمة أشياء تروى :

الليل يذيب الصور ، يبدد الوجود ، يغمر الملامح بالقتام ويحيلها إلى نثارات متباعدة ومتفرقةيطلقون عليها اسم النجوم ، وإلا لماذا وجدت النجوم ، آنذاك النجوم وجوه مبعثرة كالغبار لكن في سماء بعيدة ... بعيدة

غفوت ؟ ربما من ذا الذي ينام . ،

ذرّات رمال تميل إلى لون الدخان تعبر اختناق زجاجة متطاولة إلى الماء ، ساكن هو الماء تتجعد صفحته بالنُسيمات القليلة الباقية من المدى ، تسقط الذرّات فرادى ، يتلقفها الماء فرادى ، تسبح في الليونة مبعثرة وعاجزة عن الذهاب إلى شكل فيه أي ملامح لمعنى، تمتد ، تتطاول ، تتلوى ، تجرح صمت الهواء قليلاً ثم تعبر .

لم يكن متأكداً وهو يجول بنظره فوق السطح الزئبقي للماء الراكد من أن الذرّات التي أفرغها للتو كانت رملا أم شيئاً غير ذلك لأنه رآها و هي تنتبج ثم ينبت لها ريش كالطيور فتبقى عالقة وسط الماء دون أن يتاح لها الطيران .

قالت أمه وسط النوبات الحادة لسعالها الذي مضى بوجهها إلى الأزرق :

ـ احرق جسدي

ـ وحده الله من يحرق ... يا أمي

كانت قد احترقت بلهيب سعالها قبل أن يتسنى لها تلاوة صلاة أخيرة فذهبت مخلّفة وجهها الأخير لديه يحمله في رأسه لطخة سوداء تسد مسامات الحياة .

"لم يكن الماء قادراً على إحالة الرمل إلى غبار " كان يحدّث نفسه

غيمة رمادية تكاثفت في عمق الماء ، بقي الماء شفافاً ،صافياً ، يحيط بالغيمة التي اخترقتها أمام عينيه أقواس متلاحقة من التماعات ذهبية ، "كأن شيئاً من الشمس مازال هناك" ، فَكّرَ بهدوء ثم أدرك أن روح أمه كانت كذلك هناك .. رمادها ما زال هو الآخر عالقا بليونة الماء . ،

أشياء تروى :

المعرفة بالأشياء تمر باللايقين

ـ ما الذي كنت تفعله طيلة هذا الوقت . قالت أمه

حينها لم يجرؤ على اخبارها بأن عينيه علقتا بغيمة عابرة فراح يطاردها دون أن ينتبه بأنه حاذى طريق البيت نحو عالم آخر . ،

يسقط الفجر ، ضوء الشمس يغمرني ، الدفء يضيء أجزائي ويشع داخل الأجزاء المتوارية مني : إذاً ما زلت هنا ، (ما الذي يعني إن كنتُ هنا أم كنتُ هناك) . ،

أشياء تروى

النور يضَيّع ملامح الأشياء ويحيلها إلى لون واحدكذلك .

صياح الدّيكة وخوار البقرات يمنح زمني وجودا ، النور ينسرب إلى جسدي ، أحس به يلطخني ، بقع متوازية ومتباعدة بانتظام تخترقني ، لم أعد أذكر إن كانت سمائي مسقوفة أم لا ، لكن ما الضير في أن تكون مسقوفة ، ليكن بألواح متراكبة من التوتياء ، متعرجة ومتموجة ومائلة مع

الكثير من الثقوب التي تنظّم تثبيتها بالعوارض المعدنية التي تحملها ، إن ثقوبا كهذه هو ما يجعل أعمدة الضوء تخترق جسدي كالرماح . ،

استفاقت عصافير شجرة التوت ، كائنات ذات أرواح خفيفة وملطخة بالضوء ، ذات أرياش ملونة ، محمولة إلى صباح يسير على درب ترابية ، التراب يتخلل الأشرطة الجلدية لحذاء الطفل بينما يتصاعد الغبار خلف خط سيره المتعرج ، التراب الآن محشو بين الأصابع الصغيرة لقدميه ، يبطئ سرعته إثر ذلك ، ما من عرق يتفصد بين الأصابع حتى يحيل التراب إلى وحل .(سواء استحال التراب إلى وحل أم لم يفعل ، ما معنى ذلك؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا تمتزج أصابع القدمين ؟) ، وحل القدمين أوحى بالجدار والجدار مكحل بالطين : أعتقد أن الجدار يشبهني . لخّص .

عبرَ جدار سمعان ، انعطف لجهة اليسار ، محراث روماني قديم مشلوح هناك ، السكة قطعة بالية يلتهمها الصدأ ، رويدا يتفلّت من الطريق الرئيسي وينزل عابرا زقاق (سليمان) وظل الاسم يطرق في ذاكرته ، يوسع الجدران الداخلية لرأسه ، اصطدمت عيناه بالبوابة الخشبية المصفحة بمعدن رخيص وكأن المعدن قد مغنط عينيه فبقيتا لديها في الوقت الذي تقدمت رجلاه محاولة عبورها ، ثم أن البوابة انشقت عن امرأة تحمل كيس قمامة وتمضي به نحو صفيحة معدن صدئة ، المعادن كانت دائما صدئة ، فكر وانشغل بذلك ..

ما الذي يمنع أن تكون الصفيحة نظيفة ملونة ؟ أو ما إلى ذلك ، كأن تشير إلى ما كانت تحتوي ، زيت نباتي مهدرج ، أو سمن حيواني ، أو قار أسود يلوّث حوافها العليا ، ربما كان يفضلها زرقاء .. نعم لتكن زرقاء .كانت عيناه قد رصدتا ما شفّ خلف ثوب المرأة في الوقت الذي تفحصت هي الشارع غير آبهة به ثم مضت نحو الصفيحة ، بدأت هفهفات منامتها توقظ خيالاته رويدا..رويدا على الرغم من أن المنامة لم تكن ضيقة لتبرز أي من مفاتن الجسد ، وحاول أن يذهب في التفاصيل . كانت امرأة ناضجة ونحول خصرها هو ما منح ثدييها حجما أضخم من طبيعتهما ، واستطاع أن يرى اكتناز مؤخرتها وهي تموج بماء الليونة بعد أن قفلت عائدة نحو البوابة حيث لبثت هناك قليلا ثم أومأت له بالاقتراب ، وما أن دنا منها حتى أمرته بالدخول وما زالت ترقب خلو الطريق ، بقي ثابتا كعمود حتى تقدمت نحوه أمسكت يده وجرّته خلفها ، كانت مشتعلة وقد امتد حريقها ليورّد خديها حتى اعتقد فيما بعد بأنه كان أمام خيانتها الأولى لا بل اعتراه شعور نادم بأنه هو من أوحى لها بذلك .

أوقفته قرب فراشها ، و دون أن تأتي بأي كلام أمسكت يده ومررتها على امتداد منحنيات جسدها ، يده كانت مأسورة لديها دون أن تمتلك الرغبة بأي اكتشافات إلاّ عندما اكتشف بأنها لا ترتدي شيئا من ملابسها التحتية ، بدأ يحركها فابتسمت بخبث ، وبوداعة أغمضت عينيها ثم استلقت وجرته فوقها ويده تواصل اكتشاف تضاريسها ثم إنه وجدها رطبة هناك فلم يعرف ماذا يفعل فما كان إلاّ أن عرّته سريعا ، بدا مرتاحا أكثر وهو عار ، انحنى فوقها ثانية ، جذبته ،

حاول الذهاب فيها لكنه تعثر ، أجّت نيرانها أكثر إثر بطئه، فَهَمَتْإليه ، جذبته نحوها ، شدته حتى أحست أنه صار في عمقها ، ثم انزاح عنها ، استلقى بجانبها ، أغمض عينيه على لهاثه الأول وراح يسترجع اللحظات ليكتشف أنها منحته لذته الأولى دون أن يقوى على منحها أي شيء . ،

"سمعان .... يا سمعان ...؟ "

لست أكثر من ذلك الظل الذي يستلقي خلفي ، يلاحقني كحيوان خرافي ، أحاول أن أكسره على الجدران ، أسقطه فوق الحواف الناتئة لحجارة الحائط الذي يراقبني ، وأراه يمضي مثل طائر جريح على الرغم من أن ملامحه المتلاشية ولونه الأسود الثقيل لا يشير إلى أبعد من كائن أجرد يهوى الاستلقاء دائما هناك . ،

هذا شيء يقرأ :

ما الذي فعلته أيها الصبيّ ؟ ... أكبرت إلى هذا الحد ؟ أكان على روحك أن تلهث كل هذا اللهاث حتى تفكرَ وأنت تعبر ساعات الصباح إلى ظهيرة حالكة بأنك كنت تلاحق الشمس وتمضي سريعا خلف خيوطها مانحاً لنفسك وهم الذهاب إلى الضوء .

لم يكن للضوء أعمدة تنتصب في الفراغ الذي أحيا فيه ، لم تكن خيوطه ما يعبر ألواح التوتياء مخترقا جسدي هنا وهناك ، لقد اكتشفت أن ثمة ما يصعد مني ، شيء ممزوج بخضرة داكنة يتصاعد صوب سماء التوتياء ، ربما هي أسلاك ناعمة ، لكني أفكر الآن إن كانت حقا تصعد أم أنها تهبط وحينها قلت لنفسي ليست سوى الأغصان .

النهار يتصاعد ممتزجاً برائحة المطر ، سقط المطر ، يسقط المطر في ظهيرة دافئة ، ورائحة تراب مغسول بالمطر ، بي رغبة بأن أتمطى أفرقع أجزائي ، أحاول التملص من شكلي والمضي إلى شكل آخر ... شكل آخر . نسمة ناعمة تمرُّ ، باردة ، نسمة صفراء تميل للون برتقالي ، تكنس بعضاً من أجزائي ، ثم يأتي المطر ، يغرقني المطر أم يغسلني ؟ لا أعرف

أتربة الإسفلت تتجمع ثم تتمدد سيلاً يلتقط أدران المدينة ويأخذها بعيداً . ،

" سمعان ..... يا سمعان "

أصغي إلى النبض الخافت للأرض ، أصغي ، أعتقد أنني ما عدت أجيد سوى الإصغاء ، دراجة نارية تعبر في البعد ، لست متأكدا إن كانت كذلك أم أنها بعوضة تبحث عن نقطة ما في جسدي تستطيع الهبوط فوقها ، ثمة دماء في جسدي إذاً ، لا أعرف كذلك إن كان هذا يثير بي حزنا أم فرحا ، و إلاّ ما الذي يغوي البعوضة بالهبوط هنا ، لا أحس بلسع إبرتها ولا دوي مجساتها وهي تضخ دمي .. لابد أنها دراجة نارية لا أكثر . أصغي ـ ما زلت هنا ـ أسمع ضجيج كائنات التراب ، حافرات أوراق الأشجار وهي تكوّن أنفاقها ، تنفس الجذور الهائلة لشجرة التوت وهي تحاول المضي في أرض صلبه ، والجدار .. الجدار وحده ما يفصلني عنهم ، وهم كذلك عندما أطلقوا عليه اسمي كانوا يريدون أن يفصلني عنهم ، يقيهم مني ، لكنني اعتقد أنه الوحيد الذي يحميني منهم . ،

هذا شيء يقرأ :

أكنت تعتقد بأن الجميع يمتلكون أسباب الخوف من الآخرين .

التوتة هناك ، ثمة بقرة ترتهن الآن لجذع التوتة من خلال حبل مجدول حول عنقها وهو ما يجعلها تدور وتدور ، تلتقط ببراطمها الغليظة ثمار التوت الناضجة و ينفث خطمها ما جفّ من التراب هناك . ،

الطفل ما يزال على الغصن القوي، رائحة مخلفات البقرة التي تصاعدت أحالت العالم لديه لمكان لا يطاق ، تسلّق الأغصان العالية ووثب نحو السطح ، علّق نفسه بإحدى العوارض ثم ألقى نظرة خائفة نحو الأسفل ، البقرة انتزعت سكينة روحه ، لبث لحظات ثم قفز و أسلمَ نفسه لهواء السطح ، والسطح تراب معشب ، بعض زهيرات(الفجيلة) الصفراء تتكمّش على الحواف ، مشى تماما هناك ، على الحافة شيء يزق أسفل قدمه الصغيرة ، حجر ما ؟ ربما ، أو بعض تراب يهيل على سطح الصفيح المائل للأسفل ، يتدحرج التراب ثم يسقط محدثاً ارتطاماً ما " نقطة ماء تسقط تفجّر السكون المطبق " . ،

بي رغبة تدفعني كي أمضي إليه ، الطفل ، ألحقُ بالطفل ، أصعد إلى حافة السطح ، أجلس هناك ، أمدد رجليّ في الهواء وانتظر . ،

الغيوم تنقشع رويداً رويداً ، تتخللها شمس دافئة ، صفراء كذرّات الغبار ، الطفل هناك ، يمشي كأنما يسيرُ على الماء ، يخلع حذاءه، يتقدم حافيا على العشب الناتئ . النهايات الإبريّة تدغدغ باطن قدميه فيضحك قليلاً ثم يضحك مغمضاً عينيه لوهلة ثم ينظر إلى الأسفل بزاوية مائلة نحو الغرب ، فيرى إلى العالم مقسوماً ضفتين ، وحده (جدار سمعان)ما كان يفصلهما ، امتد السطح المتعرج لصفيح التوتياء على يمينه ، واستطاع أن يراه ؛ (سمعان المجنون) كما يصفه الأولاد ، و رآه يطارد اللهاث بينما يسند ظهره للجدار ويضغط إذ خيّل إليه ساعتها بأنه يمنع الجدار من السقوط ، يضغط ويضغط حتى تحفر قدماه خطين متوازيين في التراب الجاف أمامه ، ثم يتدحرج الصوت فوق الصفيح ، فيخبئ رأسه بحركة لاشعورية. العالم يأتي لطفل يمضغ صورة رجل بال ذو شعر أجعد محمر اللون يميل لصفرة الطين ، بنطاله جينز كاحت في كل النواحي ، رأسه الآن يسقط بين ركبتيه فيغمره بكلتي يديه ، روحه مياه مضطربة ، تدحره الأصوات الناعبة في أذنيه فيغلقهما براحتيه ثم يقف ، يستقيم كرمح ، ينفض الغبار عن مؤخرته ويزيل الأتربة التي سقطت على رأسه ثم يدور. الريح تجول بين الأعمدة ، غريبة تُصفّر ، تقلب ما تناثر من غبار فيغدو العالم مسكوناً بغمام أسود .... أسود . ،

" سمعان ..... يا سمعان "

آن له الآن أن يلتقط حجراً ، أيضرب به ؟ سيجلس فوقه ثم يبدأ بالبكاء ، أم انه كان يصطنع البكاء ؟ وحيد كحيوان حبيس ، يكسر صخور صمته فتخرج الحروف من فمه متلاشية كفحيح أفعى أو حفيف أوراق يابسة ، وهنا ينمو حظه العاثر كالعشب أسفل كل خطوة يجول بها في المكان ، والمكان فوضى عارمة وحادة يطلقها محرك (صاروخ الجلخ) وهو يدور مخترقا كتل الرخام الأبيض مبعثرا ماء البياض على شكل غبار ذي رائحة لا تشبه إلاّ رائحة الرخام . و كان على الطفل أن يرى ذلك فينشغل بالعالم الذي يدور حولها ؛ امرأة تعجن المخلفات القاتمة تحت التوتة وتلصقها على (جدار سمعان) ، كانت نافعة ، دافئة في الشتاء مثل الأشعة التي تذرفها الشمس خلل أوراق التوت فتصل إلى المرأة بينما تقلب أفكاراً فيرأسها " كانت تعلم أنه ما يزال هناك ضائعاً بين منحدرات التيه صوب (البجعة) يقذف الحصى بين رجليه كطفل لاهٍبينما تنسرب إلى أذنيها أغنية خافتة ... حزينة ربما . ،

أشياء لا تروى ولا تقرأ :

ممارسة الله الذي فينا ....

طا .... طا .....طا ..... كن طاولة = طاولة

هم ... هم ...هم .... كن هموم = هموم

***تأتي اللغة جاهزة .. غير قابلة للممارسة*= طاولة هموم**

الطفل هناك وأنا هنا ، ضبابيَ ممزوج بالرعشة ، لا أعرف إن كنت بارداً أم دافئاً ؛ بصراحة أكثر ما زلت أفكر بالكائن المرتهن إلى جذع التوتة ذات الأوراق العريضة فأنا حتى الآن لا أعرف جنسه ،أما هو فما زال يطلق صوتا بنفسجياًناشفاً ومتهرئ الحواف . ،

يحار الطفل في المساحة البيضاء التي امتدت أمامه في الأفق ، بقعة ماء تلك ، بركة أم سراب زئبقي عالق في الزمن ، وتمنى لو استطاع فقط أن يعثر على أطرافها أو يلمح نهاياتها ... لو فقط ..... كان يراها من الأعلى جيلاتينية القوام ، رجراجة ومؤرقة للنظر .هو ذا يطلق حجراً ناعماً كالغسيل ـ يفوح برائحة النظافة ـ فوق صفحة ماء البركة ، يلامس الحجر وجه الماء مخلفاً دوائر تنمو وتنمو ثم تتداخل بينما يرقبها وهي تتلاشى كالأشياء تميل نحو الذوبان . ،

الدوائر تطوف بي ، تجرفني لزمن آخر ، أرى حياتي كاملة كرمية حجر ، أم إنها الدوائر تجرفها الدوائر ، ما الذي يضير لو كانت البقعة بركة صغيرة ، كم كان سيجدي ذلك . ،

هذه أشياء تقرأ:

يمكن للإنسان أن يرتدي البيت ، أو أي قطعة منه ؛ السقف ، الجدار أي شيء فقط إذا استطاع أن يتخلص من عظامه ، ربما قادك ذلك إلى الزحف فقلت :

"الصقيع يلدغ العشب هذا الصباح "

الجدران ما منعتني يوماً من الذهاب إلى الجهات ،الهواء يأتي لولبياً ، يتقدم من الأفق ثم يمتد عالياً ويتكور مرتداً نحو الأرض ليقفل دائرة متطاولة تمتد على نحو عرضي وكأنها قطعة قماش مفرودة من السماء ... سجادة . ،

في الجهة المقابلة استطاع أن يرى المرأة ذاتها ،تضع أمامها صينية مستطيلة الشكل تترادف عليها أدوات لشرب (المتة) مع انتظار ُملِح للإبريق المعبأ بالماء فوق الموقد الصغير حتى يسخن ، وقبالتها كانت امرأة تفرد هي الأخرى صينية مستديرة عليها حفنة من العدس ، وكانت أصابعها تلتقط الحبات الصغيرة دون أن تحدث حفيفاً على الصينية ، ماءت قطتها مواء خافتاً ثم تمسحت بين رجليها .

أطفأت الموقد تحت الإبريق ، في الوقت الذي تمطّت (هنية)على الشرفة وسحبت سجادة خفيفة ثم مددتها على سور الشرفة المعدني فوقهما للجهة الأخرى . المرأتان مكشوفتان أمامها ، أصلحت صاحبة العدس لباس رأسها بينما سكبت الأخرى الماء الحار في الكأس ودفعته للأولى قبالتها .

هنية لم تُلق تحية أو تلّوح بيدها ، بل راحت توازن السجادة التي بدت له الآن بألوانها المشرقية ذات العروق الملتفة حول بحرة بلون قرميدي غامق ورأى يدها وهي تنفض بعصا المكنسة جيوش الغبار التي تصاعدت ثم تهادت فوق الفراغ الذي تشغله المرأتان

ـ يلعنْ أصْلِكْ

قالت صاحبة العدس بينما تمطّت قطتها ثانية ثم عبرت أسفل الكرسي ومضت متكاسلة نحو الخارج .

ظلال من الوجد طفت على وجه الطفل كالمياه الراكدة ، كان يرى لبحرة السجادة حتى عكّرت أنفه رائحة العطن التي تناهت إليه ، بعد أن كدرت هنية وجه البحرة ثم سرعان ما غمرته حلقات من الغبار حتى عجز عندها عن الاتجاهات . ،

" سمعان .... يا سمعان "

باغته الصوت هناك ، كانت عبارة وحيدة ، نافرة من جلد الطين ، قادمة من فراغات البازلت تحفُّ معدن روحه عندما لامست أذناه الجدار وأصغى ، أصغى وهو مايزال محمولاً على شعاع من البراءة يخترق جداره وينير أروقة الخوف في أعماقه . ،

هاأنذا الآن أتنشّق هواء آخر ... أجزائي تتمدد ، لا أكاد أرى سوى نفسي وأنا أعب في رئتي هواء العلو . ،

كانت تتوقع أن يبدر منهما شيءٌ آخر ، تفتعل شجاراً بالأحرى ، إلا أن المرأتين لم تعيرانها أدنى التفاتة ، فقط ضحكتا على مهل عندما دنت إحداهما من أذن الأخرى وتركت همساً هناك ما جعل هنية تتخامد أسفل النافذة ، تهاجر نظرتها في الأفق البعيد بينما تصغي للضوء الباهت لغروب شمس جديد . ،

الأرض لم تعد تسير أسفله .. جمد سمعان في مكانه ملدوغاً بسمّ المعرفة ثم عاود السير في الحيز الذي لا يجتاز بضعة أمتار على امتداد الجدار ، فرآها تسير كذلك ثم ما أن توقف حتى توقفت الأرض ثانية ، عندها ملأ صراخه الأرجاء الداخلية والخارجية للبيت ، وربما خيّل إليه أن الصوت يخرج من فمه لأن ما من أحد من أهل (سريان) سمع صوته يوما . اختار الزاوية الجنوبية ، اندس هناك وسط الطين ، كان يتلفظ بأشياء لا يمكن لأحد فهمها أو أن يدرك كنهتها . ،

تراجع للخلف ثم اندفع سريعا و غطس في الماء البارد ، ربما دفعه هاجس ما للتراجع في اللحظة الأخيرة إلا أن رجله انزلقت دون إرادة منه ، غمره الماء ، تحركت غيمة الرماد الساكن ، امتزجت في الماء الراكد و أحالته إلى الرمادي ، التصق اللون بجسده ، أغمض عينيه واستلقى على ظهره ، طفا فوق صفحة الماء كضفدع مقتول ، وجهه كان الشيء الوحيد الذي لم يطله البلل ، وراح ينصت للسكون العابر للماء بينما يغمره بالسواد . ،

ثمة أشياء تروى :

في الدنيا صخور لا تتكسر ، يقولون والله فيما يقولون أعلم إنها صخور الوهم .

كان يرى إلى صورته وهي ترتسم في عيونهم ممزوجة بالدهشة فارتد إلى روحه بأنه كائن مخيف ، سموه (سمعان المجنون) فراح يذرع المكان جيئة وذهابا ملتصقا بجداره الذي لا يفارقه كرحم ، وكحيوانات السيرك المزروعة خلف الأقفاص كان ملقى هناك ، في البداية كان يثور عندما ينكؤون خاصرته بعود أو بعصاة ليتأكدوا أنه على الحياة ثم ما لبث أن تجاهل هذا لسبب لا يعرفه سواه ، صارت وجوههم لا تعني شيئا ،وصار يكتفي بإمالة رأسه كلما عبروه ، يهزه قليلاً وينحت ابتسامة جارحة على وجهه ويمضي إلى عالمه تحت تعريشة التوتياء حتى انفضوا عنه وتركوه لحاله ، يتجه نحو الجدار ، يقف أمامه كأنه إنسان دون ملامح ثم تمتد يده نحوه ويلفها إشارة عن التساؤل بينما يبقى الجدار صامتا دون انفعال لأن تلك كانت طريقته

الوحيدة للرد على طريقة سمعان القاسية في الحوار ، لكنه في أحيان كثيرة كان يطلق زفيرا غاضبا عبر أنسامه المتشققة ، أو ربما تنهيدة تخرج كل حشرات الطين من داخل أعماقه .

" سمعان .... يا سمعان "

آنذاك يطيب لسمعان أن يمارس البلاهة ويضحك الضحك الذي لا يعني أحدا سواه فيرى الجدار وقد انبسطت أساريره . ،

لو أن الطفل يراني ، لو أنه فقط ينظر إليّ و أنا أثق بأنه لابد سيجدني ، لكن حتى لو كان لي هذا ما الذي سيحدث؟ وإن رآني الطفل ما الذي سيغير في الأمر ؟ . ،

المرأة صاحبة العدس تركت صينيتها على كرسي خشبي ، ولجت البيت فيما بدا أنها تبتغي إحضار شيء ما في الوقت الذي اعتذرت فيه الأخرى فخرجت دون أن تُنزل رتاج البوابة ما سمح لمعزاة صغيرة ذات بقعة بيضاء ناحية الرأس بدفع البوابة بقرنيها ثم ما لبثت أن انساقت نحو صينية العدس . ،

كان قد قضى النصف الأخير للّيل متنقلاً من حفرة إلى أخرى معتزماً قطع طريقهم ، حتى وصل إلى نبع (دير العدس) للشمال الشرقي من (سريان) هناك ارتمى ليشرب فانعكست على صفحة الماء تباشير الصباح ، ومن صفاء الماء استطاع أن يلملم تكشيرة الموت عن وجه جثة مطعونة بثقوب صامتة ، ومقيدة بسلاسل ذاهبة إلىالأعمق من صخور البركة . ،

ذاكرة المرأة استفاقت للتو بينما المعزاة تلقي ما في الصينية على أرضية الفناء المتربة ، استدارت المرأة وصعدت درجاً ضيّقته أصص معدنية مزروعة بنباتات خضراء و يلتف بشكل لولبي حتى يصل إلى أعلى ، لحظات حتى صارت أمام الباب ، سحبت شرّابة مفاتيحها وردية اللون ، أدارت المفتاح في القفل ثم ولجت على مهل كأن الخوف يسبقها ، أوصدت الباب خلفها وتقدمت خاشعة نحو صندوق حياتها الخشبي ، عابق برائحة الصندل ومرصّعٍ بأصداف البحر ، سمعت صوت الموج ويدها تحفّ عروق الفضة ريثما تفتح قفله ، كانت كمن يُفتش عن أغراض رآها في حلم . ،

لم يجرؤ على النظر إلى الوجه الذي فقد تماسكه ، كان يخشى أن يباغته بالموت ، بقي صامتاً ، أسر دمعه معتقدا أنه بذلك يبعد الهاجس الذي اجتاح بوار روحه منذ أمس الأول ساعة أخذوا أخاه ،لكنه كان يعلم في دخيلته بأنهم قتلوه فلم يعد الآن للعجلة فائدة ، فقد خابت صلواته وهو

يتخبط ليلاً محاولا اللحاق بهم لإنقاذه من مصير رآه لنفسه مرّات ومرّات ، لكنه عندما أمسك سنكة البارودة وبدأ يحفر أحس كمن يصنع لنفسه قبراً ، دنا من شجرة التوت ، وذرف دمعاً غزيراً حتى فاجأته حدّة النهار ، ، انتشله من الماء ، سمعان ، لا أكثر ولا أقل ، كان مغسولا تفوح منه رائحة طحلب بري و وجه ماض إلى النوم أكثر منه إلى الموت . حمله برفق كي لا يوقظه ثم مدده في الرمس الذي احتفره وأهال عليه التراب حتى اختفى . ،

عالجت المرأة قفل الصندوق حتى انفصلت كلاّباته عن جسده ثم فتحت الغطاء فغمرتها رائحته و اندست في عمقها فمشت بها إلى أيام خوالي . ،

أشياء تروى :

هس س س...

إذا أنت أرهفت سمعك قليلاً تستطيع أن تلتقط أصواتهم بينما يعبرون .

هنيّة وقفت وسط النافذة ، ورآها الطفل وهي تميل بجسدها إلى الأمام تستند بكوعيها على الإفريز، كان في عينيها إلحاحٌ متأججٌ يتسع فيجعل الدوائر تدور بها ثم يبدو أن الدنيا لم تعد تسعها،تغلق النافذة ،لا الطفل و لا أحد يمكن أن يعرف ما الذي كانت تفعله هناك . ،

كانت الحرب قد التهمت بيتها بثلاثة قذائف من مدفع عثماني وأحالت زوجها وابنتها الوحيدة إلى قطع منصهرة من العظام والصديد ، التقطتها جميعاً في سلّة من دموع واحتفرت لها قبراً واحدا يطل على خرائب الحرب ، ثم أهالت التراب وعادت خائبة الرجاء وحدها ، شكرية من أخبر حكايتها . ،

الأسئلة تطعن جنباته وهو يمدد رؤى استفاقت للتو و بدلت زجاج روحه الصافي بآخر مغبر ، ألمّت به رغبة عارمة بالركض ، بالصراخ في وجه العالم أو ربما بمضغ لفافة تبغ ، عاد أدراجه إلى شجرة التوت ، تأمل القبر ، لم يركض ، لم يصرخ و لم يدخن ، مرة أخرى تنسرب خيوط حارقة فوق خديه فيحس بجسده و قد صار ثقيلاً ، تهالك على ركام حجري قريب ، رأى وجه أخيه يغرب والتراب يغلفه بصمت أبدي ، كان يرسله إلى دفتر الذاكرة ، ورآه منثوراً فوق

الصفحات وقد ارتد إليه ممزوجاًبالتفاصيل ، لم يره غاضباً أو حزيناً أو مرحاً أو بأي شكل كان ، فقط كان يرسل ليمون وجهه الأخير بينما تتناثر ذرّات التراب فوقه (ربما تغير الأشياء أمكنتها .. لكنني الآن لن أبرح مكاني هذا) .

هو ذا يجر ماء البحيرة يقسم العالم إلى قسمين ، يبني جداراً من حجر البازلت ، يكحله بالطين ويرتفع قليلاً .. قليلاً فيعدّه القلعة التي ستصد هجوم الفرنسيين في أيّة لحظة ، يمزق أوراق الدفتر ويبدأ بخط حياة جديدة ، يستقدم بعض الشغّيلة لمعونته في بناء البيت بعد أن يشتري كامل المساحة المحيطة بشجرة التوت للشرق ونحو الغرب بما يزيد على عشرين دونما ، الحرب انتهت بالنسبة إليه ، صارت مجرّد فكرة لم يجد لها مبرراً أو تفسيراً و مهما سعّروا أمامه حمى الكلام عن البلاد والثورات والاحتلال فسيظل حبيس ذاكرة لا تتيح له مراجعة ما يقولون ، لكن الحرب لم تكن كذلك بالنسبة للفرنسييننأبدا . ،

المعزاة التقطت حبات العدس ممزوجة بالتراب ، لاكتها بخيلاء حيواني وعينين مفتوحتين إلى أقصاهما ، جالت في الفناء ، قلبت بعض أواني ودلقت الإبريق الصغير عن الموقد وعندما لم تجد شيئاً انسلت خارجة من حيث أتت .،

صار الأولاد على السطح ، الولد الآن يرى ما يرى الآخرون ، الفتاة ذات العينين الخضراوين أحضرت معطف الجندية الخاكي ، كان الوقت مساءً وكان المعطف كبيراً لدرجة انه غمرها بلونه العسكري الداكن ، كل الأشياء معدة الآن للعبة ، سيكون هو الدب بعد أن يغمروه بالمعطف سيحاول الإمساك بهم دون أن يرى أياً منهم ، ها هم يدورون حوله يرددون " دب أعمى ما بيقشع شي " بينما يمد يديه أمامه يحاول التقاطهم ، وبلحظة أغمض عينيه ثم فرد ذراعيه كالمصلوب وتقدم نحو الأمام ، حدس أنه يسير نحو الحافة ، ثم ما لبثت أن امتدت خطواته في الهواء نحو سطح الصفيح ، ارتطم هناك ثم انزلق سريعا وسط صراخ الأولاد نحو سمعان . ،

" سمعان ... يا سمعان "

كان سمعان يكوم نفسه بالقرب من الجدار ، يسند أذنيه على الطين الناعم ثم ينصت . ،

" سمعان ... يا سمعان "

تتالى وصولهم أمام المضافة منذ أكثر من ساعة ، لم أكن أعرف مالذي يدور بينهم

قال محمد : العائلة تريدك

من هو محمد ؟ أخي محمد أو ربما حمد ، لم أكن بعيدا إذ كنت في الغرفة الخلفية التي أخفوني فيها منذ ليل البارحة ، أجلس أمام هواء النافذة الذي يطيّر الورود النافرة عن الستارة ويعبر نحو المناطق المعروقة من جسدي ، دلقتُ أباريق الكسل ونهضت من فوري حيث مضيت خلفه حتى وصلنا . دائرة الرجال أغلقت حولي بينما النسوة واقفات على المصاطب الجانبية أمام المضافة ، و تسلّق الأطفال جدران المنزل وصولاً إلى السطح حيث جلسوا على الأشفار ، مددوا أرجلهم في الهواء و راحوا يخرجون ما في جيوبهم من السكاكر أو البذور المالحة لعباد الشمس ، يزجون الوقت بانتظار مقدمي .

فكرت وأنا أجول بقوس بصري ، في المحيط الذي أطبق عليّ : لو أنني ارتديت ملابسي التحتية أو على الأقل جوربا في قدمي قبل أن انتعل هذا الحذاء الفضفاض .

لم أفهم شيئاً مما قالوا ، ما كنت لأمتلك الوقت لذلك ، تقدم أحدهم مني ، كان عبوساً ، لكنه لم يستطع إخفاء جمال محياه ، و نعومة وجهه المغسول ، و رائحة العطر التي تفوح من بدنه ـ ربما كانت مزيجاً من ياسمين ونارنج ـ بانت يده التي خبأها لبرهة خلف ظهره ، كان يقبض سكينا ذا نصل عريض ، حاد وقوي ، بدا لي ذلك من لمحة أولى ، لم يكن خنجراً .. لا ، أغلب الظن أنه كان من السكاكين التي تستعمل في المطابخ ، (أكان خنجراً أم سكين جزار .... ما جدوى ذلك)

يده ارتفعت نحو السماء فارتفعت عيناي خلفها ، و كانت الشمس ماتزال في قبتها هناك ، ثم هوت يده نحو كتفي فاخترقته ، لم أعلم حينها أكان ضوء الشمس ما ومض في عيني ؟ أم أن السكين ما أبرق في روحي هناك ، وفاض دمي .. فاض سريعاً ... دفّاقاً ، يدي تغطي الفتحة التي أحدثها النصل ، لزج دمي يسيل عابراً أصابعي ، وبلحظة ضاقت الدائرة حولي سريعاً ثم انفرجت مخلفة كل هذه الفتحات التي لم اعد أقوى على إغلاقها " لو كنت أخطبوطا أو أي كائن آخر ذي أذرع .

دمي الآن في الأسفل ، بقعة كبيرة قاتمة ستهلكني ، لو أني ارتديت جوربي ، حذائي طافح بالدم وبات يضايقني الآن أكثر من أي شيء آخر ، أحس الآن أن أصابع قدمي امتزجت ، وحد بينها الدم " قدم دون أصابع قدمي ".

ما زلت واقفاً ، لم يكن ألماً ما اعتراني ، كان أكثر من ذلك ، بدأ جسدي يتقلّص .. يتكسر .. أنفاسي تتواثب ، تتقطع .. تيار من خدر سرى على امتداد ساقي اليسرى ، سلك ناريّ ، لم أجد أنه من اللائق أن أصرخ بحضرة هذا الحشد من الناس ، انقصفت قليلاً ثم نظرت إلى بقعة الدم وخفت أن أكبو عليها .. فكرت أن أتراجع إلى الخلف .. خطوة واحدة ما كان يعوزني .. حذائي أثقل الآن " لو لم انتعل حذاءً لكان أفضل " وهو ما يمنعني من الحركة .

الدماء تصعد في مجرى تنفسي في الوقت الذي اقتربت فيه ذراع ناعمة غمرت كتفي وأطبقت على جبيني ثم أخذت رأسي إليها بينما النصل في أصابعأختهايحز عنقي .. يحرقني ... وما زلت اسمع حفيف شفرته وهي تعبرني .

دون أن ينتبه كان قد جرني للخلف الخطوة التي تمنيت ، كانت خطوة صغيرة لكنها أبعدتني عن بركة الدم التي مالت الآنإلى السواد .

أنفاسي تذهب .. تتخامد ، تنفجر آلامي دفعة واحدة ، لم أعد اعرف أين أذهب ، وفكرت ساعتها بالدجاجات التي ترقص من ألم ، كنت أرغب بالتحرك ، بالدوران حول نفسي ، أن أصرخ ، لكن خجلي منعني مرة أخرى .

فمي حجر ، ولساني حطبه، أود أنأذهب ، فقط أن أغمض عيني وأذهب .. فقط أذهب ، أهوي الآن ، أسقط ، أتمدد هنا ، رجلي تحفر خطا في الأرضية دون إرادتي ، البركة صافية دون رائحة والشمس ما تزال هناك ، صفراء .. صفراء .

تعبرني النسمات أخيرا.. النسمات صفراء ، رئتاي الممزقتان تلفظان آخر الأنفاس .

ممدد على ظهري ، عيناي ذاهلتان إلى النهايات ، اقتربوا مني ، عيونهم تختبر لحظة موتي ، حتى أرجلهم وخزت خاصرتي مرات ومرات ، كانوا يعتقدون بأنني ما زلت لديهم ، أما أنا فقد فارقتهم منذ وقت طويل . قلبوني على وجهي ثم أمسك بي أربعة رجال ، حملتني الأيدي ومضت ، الطريق أمامي بدا واضحا ، أملساً وثقيلاً ، لكنه كان طويلا بعض الشيء لأنني كنت مرهقا و أود أن ارتاح ، عندما توقفوا أخيرا بدأت ألسنتهم بالعد .. واحد ... اثنان .. ثلاثة ، و بدفعة واحدة صرت مغروسا أمام جداري هذا ، منكساً على وجهي أحاول فتح طريقٍ للموت لكن دون جدوى . ،

فاحت رائحة الحزن ، حريّفة ،حادة متدرجة نحو النعومة ومائلة نحو الراحة ، كان هواء الغرفة نقياً صافياً أزرق اللون وكانت وحيدة هناك تجول في بلاد ذاكرتها الواسعة بينما أغراض الصندوق مبعثرة أمام حزمة ثقيلة من الظل على الرغم من أشعة الشمس التي تغمر الغرفة ،

ـ تلك (غدّارته). ،

كانوا قد طوقوا المنزل بينما اللحظات تهرع نحو الصبح ، استفاق مذعوراً ، يده على البارودة بينما يستكمل ارتداء ملابسه وهو يكر على درج البازلت وأثناء ذلك و قبل الوصول إلى البوابة قلّب في رأسه كل الخطط التي أعدها لمواجهتهم .

كان الهواء قد انغلق على رائحتهم ووصل إليه عبر خيوط ناعمة من كل الجهات فعرف حينها أن فكرة مواجهتهم لا تعدو أكثر من جنون ، أكمل ارتداء (جناداته) ، شد إبزيم سرواله كمقاتل وقبض على البارودة ثم طار نحو حصانه متسربلاً بالعتمة ، مغموراً بنور الصلوات ، فكر بـ (شكرية) الأمر الوحيد الذي قد يرغمه على الاستسلام ، إلاّأنه نأى عن تفكير كهذا عندما نحت العبارة أثناء انشغاله بركوب الحصان : شكرية أخت الرجال

همز خاصرة الحصان ثم تقدم نحو البوابة ، إلاأن رشقة مديدة اخترقت معدنها الصفيح جعلته يتراجع ، يحوم في أرض الفناء كطائر ليلي ، أسفل وابل الطلقات الذي انبعث فجأة من نافذة شكرية في العليّة الجنوبية باتجاههم ، أربكه ذلك ، خاف عليها وهي توقد الحاجة لحل سريع يجعلهم يحيدون أنظارهم عنها . مسح عنق الحصان وطيرّ عرفه بين أصابعه ثم ربّت ، أرخى اللجام وهمزة مرة ثانية فانطلق سريعاً باتجاه الجدار ثم وثب كحيوان خرافي ، كان يرى نفسه معلقا في الريح محمولاً فوق توق النجاة مسفوحاً بصهيل الحصان المتقطع كارتجاف الموت ، فرّت اللحظات كعصافير مستوحشة ، ثم رأى الحصان ، رآه مجندلاً أمامه إثر النيران التي نحرت لبته ، و رأى نفسه مغسولاً بماء العجز وقلة الحيلة ، و دارت الدنيا به و رأى عظام ساقه وهي تنفر من اللحم بعد أن سحبها من أسفل الحصان تحيله رويدا إلى الأسر ، واشتمّ رائحة خطوهم يتقدم نحوه . حمحم الحصان ورآه يلفظ أنفاسا أخيرة ويطبق عينيه على وجع أكيد .

كان الجدار هناك ، يلقي عباءة ظله فوقه ولمحته شكرية أخيراً وهو يخرّ على ركبة ونصف ، يسند أخمص البارودة على الجدار بينما فوهتها تستقبل لهاث أنفاسه ثم يضغط فتبرق نيران الطلقة خلف رأسه ، أم أن الصبح كان يرسل أولى أشعته أم هي صرخة متخامدة هناك في العليّة ، ليرونه و قد استحال إلى جثة هامدة مطلية بحروق البارود وبدهشة ناعمة تنفر بين عينيه ثم تطلق خبر نهايته في شعاب الصخر .

وقفوا أمامه لبرهة ، تحسسوا سخونة جثته و هي تميل إلى برودة مالحة ثم تركوه ملفعين بصمت خاشع لاختياره طريقة ذهاب لم يعهدوها سابقاً بينما شكرية تحمل آثار غيابه فوق صوتها الحائر ، رفضت دفنه بجانب أخيه ، احتفرت قبرا في جهة الجدار الأخربورأت نفسها وهي تفصل بين عالمين من خلال جدار ، مسحت شواهد القبرين وكل العلامات التي تشير إلى وجودهما ثم قالت ذلك اليوم وهي تشرنق وجهها بعلامات الحياد والرجولة : ما ظلْ بيناتنا حدودْ .. أنا و إياهم صرنا واحد. ،

" سمعان... يا سمعان"

أغامر في الأشياء وحيداً, أبدد ملامحها... أعيد صياغتها, شَعري يتشبث بالأرض ينغرز كالجذور, الموسيقى تعود تمنح وقتي لغة أخرى , تضحكني جملتي, ثمّة عود ترافقه كلارينيت أم

أنها كلارينيت يرافقها عود؟ ضربات العود تبدو خضراء , خضراء ونقلات العازف بين الأوتار تبدو كبراعم تتفتح, ثمة ما يغطي المساحة المفقودة من اللحن. ،

نهض الولد، مدد رجله المغلفة بشرائط الجبس, تذكر أنها كُسرت بينما يقفز عن السطح كدب أعمى, أمه أحضرت بضعة أوراق بيضاء وعلبة أقلام ملونة، دفعتها إليه, ومضت تحاول إدارة أعمال البيت،يلحظ الآن ألوان ملابسها لم تكن تنم عن شيء ولكنه استشعر النظافة التي تفوح منها وقاده ذلك إلى الأوراق فراح يمزج ألواناً لاُتمزج ، استخرج لونا معدنياً أقرب إلى الفضي ، مدده فوق مساحة متطاولة من الأخضر ثم زلقَ القلم برشقات حمراء متقاربة اخترقت بقية الألوان، كان كمن يرسم في حلم ، لكن الورقة سرعان ما حفلت بأربعة بقع حمراء تكررت هناك ثم امتد اللون الأخضر قليلاً وتقلّص الفضيإلى الأسفل لكنه ظل يخترق الأخضر ويواجه البقع الحمراء الصاخبة, أبعد الورقة عن وجهه, تملاّها طويلاً, تأمل في الألوان, أخذته إلى عالم آخر, كان الشكل يميل أكثر فأكثر إلى فرس تكبو بعد أن بدا واضحاً إصابتها بعدة عيارات نارية في لبتها, غدت في الجزء العلوي من الرسم, ربما خّيل إليه ذلك لأن الرسم لم يحفل بدقة التفاصيل بقدر ما تجلى في وشائج بين ألوان لا تلتقي. ،

النغمات التي تطلقها الكلارينيت تغزل خيطاً ناعماً أحمر اللون, خيط حاد و رفيع يجعلني أفكر بثمار شجرة التوت التي أينعت ومافتئت تتساقط حمراء موشاة ببقع بيضاء اللون, طعمها في ذاكرتي يجعل خيط لعاب ينسرب من فمي ، يتلوث فمي بالطين بعد أن يمتزج بالتراب الحار . ,

أخته شكرية قالت: الجدار قتله, نطقت ذلك بعد خمسة عشرة عاماً أو أكثر بينما تجتاز مصاطب الرجال على جانبي طريق البئر, كسرت زجاج نظرتها و وازنت لباس رأسها ... الجدار قتله قالت ، ثم أردفت : والجدار وحده ما حال بيني وبينهم.
امتد بها الممر الخارجي نحو غرفة المؤونة ، تظلله شجرة بلوط وحيدة قليلة الارتفاع ، عبرت قوس الحجر المطلي بسواد الزمن ، جلبت معولاً و امتدت خطواتها نحو الجدار ، فكرت أن تلتف من الجهة الشرقية لأنه أقل ارتفاعاً من تلك الناحية ودون أن تفكر في ذلك وجدت نفسها أمام سمعان.
كان ثمة غرسة ناعمة لياسمينة تتكمّش بالنتوءات القابلة للصعود , سمعان يفرد ذراعيه و يغرز أصابعه ببقايا الطين الجاف ، يدير ظهره لمعولها بينما تثب من عينيه دهشة ممزوجة بروح معاتبه.

سمعان... فوجئت به.. نسيته في غمرة انشغالها بحطام الحياة ، كان آخر رجل في سلالتها وآخر مخلوق يمكن أن يعيد النسغ لشجرة حياتها اليابسة ، لم تعلم ما اعتراها من مشاعر حينها.. ثابت إلى رشدها, سقط المعول من يدها... تقدمت نحو سمعان مسحت شعره. أوقد روح أمومتها, و لأول مرّة تحس بأنه والجدار باتا شيئاً واحداً، ومن صدرها أخرجت بضع حبّات من السكر دستها في راحة يده ثم أطبقت أصابعه عليه... ارتجفت ابتسامته, ارتسمت على وجهه ، متقطعة وعلى دفعات.
في المساء امتدت يدها إلى المرآة, كان ثمة زغب ناعم بلون الفضة ينمو على وجنتيها وذقنها, سخرت من نفسها آنذاك, إذ إنها أدركت أن ثمة خطأ ما في حياتها. كان لابد لله أن يخلقها رجلاً . ،

نفقت البقرة, امتدت روح جافة نحو جسدها, عجفت فتهاوت تحت ثقل جسدها الواهن بينما لا تزال مربوطة بجذع شجرة التوت. ،

مكسوة بغلالةأرجوانية تقدمت الفتاة ذات العينين الخضراوين، تخطّت عتبة الغرفة، و مضت نحوفراشه , كانت راحتاها تغمران وعاءً صغيراً من الألمنيوم مملوءاً بثمار توت ملّونة, و دون أن يصدر عنها أي كلام, حدّقت في عينيه وجلست بالقرب من فراشه ، وضعت الوعاء على الأرضية ثم دفعته إليه بينماعلقت نظرتهابجبيرة الجبس البيضاء
- أتؤلم
قالت الفتاة بنعومة وما تزال تحدق في بياض الجبيرة .
الولد اكتفى بالنفي بينما يرى قطع الثلج فوق (ثمار التوت) وهي توشِرُ ألوانها وتحيلها إلى لون أخضر... فقط أخضر. ،

شيء للقراءة
ثمة رياح تأتي, رياح رمادية غامقة, تجتاز حقول (سريان) تقتلع غراس الوهم التي تنمو دون رعاية من أحد.
"سمعان... يا سمعان"

ورآها هناك تستعرض فتنتها, أو هكذا خيّل إليه ، وسواء فعلت ذلك أم لا لن يتغير لديه شيء , كان محمولاً على موجة ضوء خافته, تتقدم نحوه في غلس العتمة, تمسك بيده, يبدو مذعوراً, تفيض عيناه بالضوء كعيني قط, يمانع, يشد يده للخلف تمنحه وجهها, يتملاه ، وجهاً يرشح بالحب, تضع في يده بعضاً من حبات السكر, يألفها ثم يمضي

خلفها, تدخل به في الغرفة المجاورة لغرفة المؤونة, المترعة بأواني النحاس والألمنيوم وبهدير خافت لموقد يشتعل تحت وعاء معبأ بالماء الحار, تعرّيه هناك وتبدأ بغسله, يبدو مستسلماً لها ولرائحة صابون (القطرون) , سكبت الماء الحار فوق شعره فانزلقت حبيبات متفرقة متباعدة فاستحسنت فكرة الصابون على الرغم من أنها كانت تملك ما هو أحسن عطراً, لكن أدرانه كانت أصعب.
من الأعلى كان بوسعه أن يرى ما بين ثدييها بياض يميل إلى ظل موشى بسواد الدانتيلا الناعمة.
كانت قد أرغت الصابون على كامل جسده وغطّت شعر رأسه بأبيض يميل إلى الأصفر وعندما وصلت إلى وسطه ، تلاشت سرعتها ثم امتدت رويداً خلف السيور المطاطي لسرواله الداخلي, تمرغت يدها قليلاً حتى فاضت رغوتها عن السواد الباهت للشعر المتجعد هناك, انزلقت الصابونة من يدها وساحت مع ميول الأرضية نحو مصرف المياه, عاودت تفرك نحو الأعلى ثم أنها توقفت ناحية البطن وعاودت النزول ثم زحفت ببطء حول عضو ذكورته فمست برؤوس أصابعها خصيته, كان ثمة شيء يصحو أمامها في الوقت الذي امتدت يده المغطاة بالصابون في الفراغ ما بين ثدييها, نظرت في عينيه, كان ثمة حمرة داكنة وروح حيوان متوسلة تتبخر منهما, تواثبت أنفاسها, أدركت لحظتها أنه يعي جسدها, قبضت على يده, أخرجتها ، ثم وقفت قبالته, تأملت نحاس جسده وهو يلتمع تحت الضوء الخافت والقطرات الناعمةللماء تتكور على جسده كالندى, غسلته ثانية جعلته يخطو خارج بقعة الماء والصابون أسفله ثم قدمت له ما يجفف جسده واستدارت نحو الباب, يداه غمرتا رمانتي كتفيها, أراد أن يستبقها بينما هي لبثت واقفة دون حراك, لم تكن قادرة على تمييز مشاعرها آنذاك, كانت مباغَتَه أم أن رغبتها هي التي استفاقت للتوّ, حاول نزع سحاب فستانها دون أن يفلح, صار الوقت غارقاً باللهاث محمولاً بأنفاس حارة تتصاعد مع بخار الماء المتكاثف في الهواء، ثم أن يديها امتدتا نحو الخلف حررتا السحاب فانسل ثوبها عابراً تفاصيل جسدها نحو الأسفل ، ثم استدارت نحوه ، كانت قد خلعت أثناء ذلك صدريتها فانبثق نور عارم أمام عينيه ، أم أنه من مزّق خيطانها؟ وإلا لماذا هي بين يديه الآن؟ وسواء أكان هو من نزع صدريتها أم أنها خلعتها من تلقاء نفسها ما الذي يغير في الأمر.
تأملته طويلاً تفحصت بشرته الملساء ورأت جسده مغسولاً طاهراً بفعل الماء الذي كشف عن تضاريس عضلاته و رجولته الخامدة .
على الأرضية المبللة مدّدته ، ثم اعتلته فاخترقها عضوه بسهولة مباغته.
كانت روحها تهفو لنهاية سعيدة غير النهايات التي ما تزال تطبق على صدرها طيلة هذه السنوات ، أطلقت آهة مديدة و مبغومة وواصلت صعودها وهبوطها بأناة وصبر, انفلت شعرها وغطى وجهها , صار الشعر كعشب البحر, ووجدت في ذلك ملاذاً من عينيه الفاحصتين وعلى الرغم من ذلك أغمضت عينيها... أغمضتها على رغبة تتغلغل نحو عمقها, يداه طوقتها وراحت أصابعه تضغط مؤخرتها, جذبها إليه، كانت تزق

كحوريـة بحـر, مـا هـي حوريـة البحـر؟ لـم يتسـاءل حينهـا ، بـل شـدها أكثـر فغـاص بهـا وأحسـت أنهـا تلتهمـه, ثـم سـكبت راحتيهـا علـى صـدره واسـتقام جـذعها فجـذ بهـا أكثـر وانشـدّت إليـه, انشـدّت أكثـر وغابـت ، غابـت لفـرط تعبهـا أم لفـرط سـعادتها أم حزنهـا ؟؟ لـم تكـن تعلـم، فـي الوقـت الـذي مـا تـزال عينـاه تتواثبـان نحوهـا فيسـدد لهـا نظراتـه حـائرة, خفيفة, نابضة لا تتوقف. ،

كـان علـيّ الإنصـات للأجـراس منـذ البدايـة, لـم تكـن أجـراس كنـائس ، وكـان علـيّ أن أعلـم , أتكـون أجـراس كنـائس.. لا.. لا كـان يرافـق دقاتهـا الرتيبـة وقـع أقـدام يشـبه انتظامهـا انتظـام مشـية عسـكرية وغالبـاً مـا تفـوح فـي محيطهـا رائحـة لا تشـبه الـروائح.. رائحـة صـفراء كلون الزيت المحروق , مجعّدة و قذرة. ،

أشياء تروى
يقولـون والله فيمـا يقولـون أعلـم أن للنـاس فـي ذلـك الزمـان مزاجـاً فـي استسـقاء الله ببقرة .

كانـت البقـرة تضـحك ، ورآهـا فـي المدينـة الجامعيـة محبوسـة بـدوائر كرتونيـة تحـوي مثلثـات مغلفـة بالقصـدير، يقشـر بعضـاً منهـا ثـم يطليهـا فـوق رغيـف أسـمر مـن خبـز سـميك ذي رائحـة مخللـة، ثـم ينـهش كحيـوان لـم يـذق الطعـام لسـنين خاليـة, وكـان أثنـاء ذلـك يتسـلى بمحاولة إيجاد نهاية للبقرات على غطاء العلبة. ،

يتثـاءب الليـل.... يتمطـى, يطعـن وحـدتها ، و مسـكونة هـي برجفـة بـرودة ناعمـة تجعلهـا تنتبـه إلـى أن ثمـة نسـمات كـان عليهـا أن تتنسـمها, تنتبـه إلـى لحظـات حياتهـا الهاربـة فـي تفاصـيل أحبتهـا كثيـراً ، و راحـت تفكـر فـي تلـك الـروح التـي تفعـل مـا يفعـل نـور الصـباح بإضاءة الغرف التي تبدو دائماً منغلقة على ذاتها وفرحة بالظلمة. ،
أجـراس أغنـام (سـريان) تـؤوب مـن المراعـي مسـاءً, تميـل كـلاب رعاتهـا نحـوي, تهبـط عـن طريق الإسفلت المطلي برمل أبيض, ترفع أرجلها وتبول بالقرب مني.
أجـراس أغنـام تلـك ؟ أم وقـع أحذيـة جنـود ذات أعقـاب ؟ أم أظـلاف ؟ مـا الفـارق فـي هـذا ؟؟ أيحـدث هـذا فـي الصـباحات حـين تمضـي القطعـان إلـى المرعـى أم فـي المسـاء عنـد إيابهـا؟ , لا أعـرف ، مـا الـذي يعنـي أن يـذهب الجنـد إلـى المعـارك ؟ يعبـر الجنـود... مـؤللين بالماكينـات تنفـث دخانـاً أبـيض ويعبـرون سـهول المجاعـة والقحـط فـي الجهـة الجنـوب مـن سـريان, كـانوا يخرجـون مـن آليـاتهم كالسـعادين, يلقـون بمعلبـات السـردين واللحـوم الرديئـة والبقـول المحبوسـة بأسـوار المعـدن ذات الطعـم الكـالح والمائـل للصـدأ

بشكل دائم, لكنهم دائماً لن يستطيعوا أن يوسعوا دائرة, الفرق بينهم وبين الكائنات المعلبة, أفراخ سردين كانوا، تحبسهم آلياتهم كذلك وهم يسيرون باتجاه الحتف بينما يهتفون باسم الوطن والقائد, تذوب التفاصيل دائماً بين الموت والحياة وبين الحياة والموت وإلا من أكون. ،

"سمعان.... ياا سمعان"

يدور على نفسه ، ثم يتقدم بخطوات يأسرها الضيق ليتفحص المكان مردداً كلمات لا يفهمها سواه ، هو الآن يثور غاضباً ، يرفع سبابته مهدداً ، يحتقن وجهه ، يغلي لكن سرعان ما يهدأ عندما يلوح ظل على البعد أو تفاجئه خطوات مباغتة من الجهة الأخرى للطريق ، يستند إلى الجدار ثم ينزل بجسده إلى القرفصاء ، يتكور كقنفذ فيتدلى رأسه بين ركبتيه ثم يغطيه بيديه آخذاً شكل الجنين فلا يظهر منه سوى عينيه تحفلان بجمر ذعر حيواني كئيب . ،

لم يكن على شكرية إلا أن تأخذ ركناً في غرفتها بعد أن أطلقت (هنية) باتجاه أم سلمان الداية ، إذ أحست بالوخزات الحادة تفصد جنباتها وبانسلال يعبر باتجاه قعرها, لم يطل الأمر أكثر من عشر دقائق حتى كان سمعان يتنشق هواء آخر وعندما وصلت أم سلمان كان صراخه يملأ ضفاف البيت الكبير و (شكرية) غارقة في بركة من الدماء والخوف والصمت, فأقبلت إليها على عجل ، نظفتها من دمائها وأطفأت شعلة خوفها بماء الصلوات, وأمسكت بالطفل ، فركت رأسه بمنقوع أوراق السنط و عفّرت جسده بالريحان ثم شرنقته بالبياض ودفعت به نحوها , كان المولود قد استكان وبدا النعاس يرفرف فوق عينيه, رؤيتها لسمعان الذي امتلك عينين صافيتين كالماء البارد جعل روحها الجافلة تخشع في الوقت الذي كانت تتفرّس بعيني الطفل وترى فيهما امتداد السلالة وحفظها من الدمار لكندموعها سبقتها :
ـ آثمة ... آثمة
كانت تردد ، ولم يجف بئر دموعها قبل نهاية اليوم . ،

البقرة بيضاء اللون ، وكان البيت متروكاً إلا من غرفه خَفَتَ نورها، لحظات حتى انسرب صوت الناي عابراً الصقيع البارد لخلوات البيت الغامقة, كانت هنيه ترسل

هـواء وحـدتها عبـر القصـب المثقـوب بينمـا تتـرادف أصـابعها حتـى يجتـاز الـنغم الـذي تطلقـه البحيرة الساكنة نحو الغرب فيتصاعد النقيق الحاد لضفادع الوحشة.،

الأرض عالقـة بقدميـه كـان يرفـع رجلـه فيُسـر عنـدما يراهـا تبعـد عـن التـراب ، ومـا أن يلمـح رجلـه الأخـرى عالقـة كـذلك حتـى يسـارع إلـى رفعهـا ، لكنـه سـرعان مـا يكتشـف بـأن الأخـرى قـد عـادت نحـو التـراب فتعلـق ثانيـةهناك حتـى يعـاود رفـع الأخـرى فيـراوح فـي مكانـه ، ثـم يبـدأ بـالجري نحـو الأمـام حتـى ينغلـق دونـه الطريـق فـي الزاويـة الجنوبيـة فيقفـل عائـداً نحـو الخلفيتهالـك رويـداً و يسـقط علـى بطنـه غارقـاً بلهاثـه لوهلـة ، ثـم ينتبـه إلـى أن الأرض مـا تـزال تلتصـق بـه فيحـاول الـتخلص منهـا, يلتـف ثـم يسـتلقي علـى ظهـره و يغـرق فـي أمـواج التوتيـاء بعـض الوقـت ثـم يتخامـد ويبـدأ بالبكـاء بعـد أن تغمـره غمامـة التـراب التي صنعها بنفسه . ،

كـان ثمـة حشـرة تنـدفع نحـو زجـاج النافـذة , فكـر الولـد: مـا الـذي يغريهـا بولـوج البيـت؟ ـ هذه بشارة
قالـت الفتـاة أثنـاء قيامهـا. فتحـت درفـة النافـذة فـدخلت الفراشـة, نـاثرة غبـار جسـدها فـي الأرجـاء ، أمسـكت بهـا ، قفصـتها بـين أصـابعها ثـم حررتهـا بعـد أن امتـدت راحتهـا إلـى الأعلى ، رأت غبارها العالق في باطن يدها
ـ أيأتي وقت تنثر كامل غبارها فينفد جسدها ثم تتلاشى وتنتهي ؟
تساءلت البنت
ـ ثمة سروة تتسامى هناك
قال الولد بينما يشير إلى اللوحة
الـتقط قلمـاً أحمـر وعـاود الرسـم ، ثـم أن الفتـاة قامـت فاندسـت بجانبـه وغمـرت نفسـها بلحافـه ثـم راحـت ترقبـه وهـو يواصـل الرسـم بينمـا الفراشـة تـرف بأجنحتهـا نحـو طريـق الخـروج . ،

أشياء لا تقرا ولا تكتب
إننـا عـالقون فـي المكـان، ومهمـا حاولنـا الابتعـاد فـنحن دائمـا موثقـون بسلاسـل صـنعناها بأنفسنا .... المسألة هي : طول السلسلة أو قصرها.

كانـت البقـرة بيضـاء ، وسـقوط المطربـات بعيـداً . سـريان تطـوي نهـارات جافـة تتقـد بشـمس حارقـة ، قطعانهـا تفقـد صـوابها بسـبب مـن (موسـم ذبـاب الخيـل), وكانـت البقـرة قـد فقـدت صـوابها أيضـاً فراحـت تهـاجم شـجرة التـوت بقرنيهـا، إلـى أن علـق أحـدهما فـي عمـق الجذع, خارت البقرة ... خارت دون جدوى . ،

" سمعان ... يا سمعان"

عصافير السهل اقتربت أكثر نحو فتات الخبز الذي تناثر حول زاده وهو يفترش الأرض ويجيل بنظره الأرجاء, كانت الشمس ترسل في مدى رؤيته قطعان السراب الذي يحيل السهل إلى بحر فضي اللون بينما الجزء الذي انسدل من كوفيته يحزم عينه بظل أسود ثقيل.
كانت الأحلام قد عبرته منذ أول النهار بينما بقي يحدد ما تبقى من رؤاه طيلة النهار في سماء بلا غيوم ويطاول الساعات لعلمه بأنهم هناك ينتظرونه بسكاكينهم التي لا تأتي غالباً من الخلف, يطعن السهل بابتسامة يائسة ويرد على مسمع العصافير" هي ... هنية .. ما حدا غيرها "
منذ ثلاثة أسابيع كانتسنابك حصانه تعجن أوحال البركة ويتجه نحو (المحاسي) الغربية كي يورد قطيع أغنام (آل سمعان) وما أن عبر المسيل الحجري حتى تقاطع مع أغنام (ولاد الفرَج)
ـ سليمان.. رجاع ...
طعنه الصوت.
كان يمكن أن يعود لولا أن الصوت أردف.
-كان ناقصنا زوج هنية
التفت إلى مصدر الصوت كان مسلط الفرج يزّنر خصره بيده ويزهو بشاربين فاحمين كالليل, سليمان آنذاك لم يكن يعلم ما الذي ينتظره.. أشاح بوجهه عن مسلط ولكز الحصان باتجاه (المحاسي)في الوقت الذي بدأت الأغنام تتكاثف حوله.
لم يدر حينها مصدر الدوي الذي اجتاح رأسه فجأة إلا عندما تحسس السائل الحار وهو يزق على ثيابه كجدول صغير ودون أن يعي كيف سيحصل هذا شد لجام الحصان و كرّ باتجاهه, تحاشى الحجر الثاني, و بلمح البصر كان مسلط أمامه منطرحاً على ظهره والدماء تملأ فمه, حينها لم يرض أن ينبطح فوقه, أمسك خناقه بفولاذ يسراه أوقفه على قدميه, حدق بعينيه, تّملاه بينما مسلط ذاهل في عمق عينيه ومطلي بليمون الخوف والشعيرات الكثيفة لشاربه الفاحم تتناثر في الهواء المطعون بشمس ظهيرة حالكة . فيما بعد سيرى مسلط تلك العينين و صاحبها يتلقى الطعنات القاتلة لأولاد الفرج ناحية جدار سمعان حيث نصبوا كميناً له هناك، فبعد أن أسند ظهره للجدار لوى عنقه للأسفل كان يرى روحه تسيل من خلال الطعنات التي أحدثوها في جسده وولوا هاربين, كان يرى بركة الدم التي تجمعت أسفل قدميه ويتساءل أثناء النهنهات الأخيرة لروحه التي تغادره– أهذا هو أنا.... كانت غلطتك يا هنية ، بينما اندلعت رأسه على كتفه وذهب وهو لا يزال واقفاً. ،

"سمعان... يا سمعان"

لم يكن للبقرة ذيل... ثمة من يقول ، فكانت دائماً مهتاجة بفعل الوخزات الحادة للحشرات التي لم تستطع لها رداً وكان خوارها يمتلك الجهاتو يعبر الفلوات, ولماذا لم يكن للبقرة ذيل ؟ "ثمة من يسأل".,

يجلس على الجدار, أي جدار؟ إنه هنا وإلى هناك كان يستطيع الذهاب ساعة يذهب إلى هناك، فيكون هناك ما يكون ، ويكون باب مغروز في رمال الصحراء وحيداً, وتكون صحراء ويكون رجل والرجل يتهالك من الجوع والعطش وحيث تكون الصحراء هناك يكون الجوع ويكون العطش ويكون باب والباب يوصد في وجه الرجل المغبر القادم من هناك وحيث يكون الباب لابد من رجل يقرع الباب, يقرعه طويلاً ثم يتهالك رويداً دون أن يعرف أنه ما من باب في الصحراء سوى الباب وباب الصحراء ليس بباب فيصعد هناك على الجدار كي يتسنى له رؤية الصحراء هناك بينما تبقى هنا والذي يبقى هنا لا تعوزه الحاجة للذهاب إلى هناك والذي يود الذهاب إلى هناك لا يقوى على البقاء هنا وهنا لا يوجد سوى الجدار يستطيع أن يراقب العالم, بينما يجلس عليه وأن يجلس على الجدار أو يجلس الجدار عليه, وعليه أن يتخيل دائماً كيف يمكن للجدار أن يجلس عليه لأن الجدار ببساطة لا يتحرك والحركة تأتي إلى الجدار وهناك خلف الجدار بقي يحاول عبور الجدار دون أن يقوى على ذلك لأنه يكتشف بأن لا وجود للجدار والوهم يأتي من هنا, أم أنه كان دائماً هناك وهناك لابد أنه خلف الجدار وإلا لماذا يرى البحيرة صحراء ، وعبر الصحراء لابد من وجود رجل يعبر الباب بعد أن يكسر مفاصله ومفاصله ترتجف أسفل جسده هناك ؛ وهناك ما زال الرجل يظن أنه هنا فيلتف حول الجدار، أم أن الأمكنة تدور وتدور ؟ وإذا كانت الأمكنة تدور فلابد من شيء يحدث للرجل الواقف أمام الباب ، هو ذا يمسك مقبض الباب ويدير القفل، أم أن الأمكنة وحدها مازالت تدور؟ ويدور قفل الباب ، وعندما تلج الأبواب عليك أن تتعلم كيف تخلع حذاءك خارجاًأمام الباب, ولأن الرجل الصحراوي لم يكن هو ، فإن حذاءه ما زال أمام الباب و الباب مفتوح وخطوات حافية على الرمل ما زالت تضيع هناك وهناك رجل يحتذي شيئاً يعبر الباب, والباب مشرع على اللاشيء لأن الرجل يكتشف أن ما خلف الباب لم يكن إلا الهواء, باب مغروز برمال الصحراء. لا يمكن أن يكون أي شيء غير الباب.,

أرى أجساد أهل (سريان) وهي تعبرني عارية, أضحك في سري... وأتفحص أجساد الآخرين لست بحاجة لأكثر من ذلك لأني مازلت أمتلك هذا الجسد الذاوي ، وكنت أراهم ينظرون إلي فأرى رغوة الكراهية والعجلة تطفو على وجوههم وتتخذ الحياة

لـديهم مظهـراً قاسـياً وهـي تمتـد فـوق الشـارع العـريض الـذي اسـتحال إلـى رصـيف يمـنح المدينـة مظهـراً جديـداً, ومنـذ أن حـدث مـا حـدث لـم يسـتطع أحـد مـن أهـل سـريان أن يلحـظ وجودي.
كـم أرغـب الآن فـي اجتيـاز الشـكل الـذي منحـوني إيـاه ، أن أتحلـل, أذوب فـي الأشـياء, أتصـاعد أو أنغـرز عميقـاً فـي التربـة, ألاحـق جـذور التوتـة التـي تصـرف فـي الأسـفل... يخـالجني شـعور بالنهايـة وأنـا أرى سـمعان مأسـوراً للمسـاحة التـي تغلفـه بالوضـوح وتمتلكنـي الدهشـة دائمـاً عنـدما ألمـح صـلابته وقـوة بأسـه عنـدما تجتاحـه أشـواق الأسـئلة التي لا تنضب. ،

"سمعان ... ياااا سمعان"

قـال سـمعان: لـيكن لشـجرة التـوت بقـرة, فكانـت بقـرة وكـان ليـل وكـان نهـار حتـى اكتشـف أن البقـرة بـلا ذيـل. كـان ذلـك منـذ أن بـدأت سـريان تطـوي نهاراتهـا الجافـة ويـرى أهلهـا سماء بلا غيوم و براعم مزروعاتهم عالقة في الوقت ، كانت بحاجة للمطر.
غـاب المطـر، وجفـت ضـروع الحيوانـات والمواشـي, انتهـك القحـط قلـوب النـاس فزاغـت عيـونهم عـن المكـان و راحـت تصـبو إلـى مـا بعـد الأسـئلة, يبسـت أوردة الفلاحـين, فكـان عطـش وكـان جـوع, صـارت الكلمـات جوفـاء محنطـة وبـدأت قوافـل الغـادين ترسـم خطوطـاً رمادية تتلوى فوق السفوح البعيدة للتلال المحيطة بسريان . ،

كانـت شـكرية تنظـر لسـكون المطـر فـي الغيـوم العاليـة علـى أنـه أمـر فـي غيـر أوانـه إذ أرغمهـا ذلـك علـى قضـاء سـاعات المسـاء تتأمـل فـي مصـير (سـريان) بينمـا يلفـح وجههـا هـواء القحـط المجعـد والمائـل لصـفرة باهتـة, كانـت (سـريان) تتخامـد أمـام ناظريهـا فـي الوقـت الـذي تعتقـد بـأن عليهـا الانشـغال أكثـر بمصـير سـلالتها, وكـان علـى القوافـل أن تمـر بالبيـت الكبيـر فـي طريـق تشـتتها تتـزود بالمـاء مـن بحيـرة سـمعان فيغمـرون القـرب فـي زلال مياههـا بينمـا يسـترقون النظـرات للخضـرة التـي تحاصـر المـاء, كانـت قطعـة مـن الجنـة كمـا يقولـون ثـم يتـأملون فـي المواشـي المأسـورة بأسـلاك مـن معـدن شـائك يرونهـا لأول مرة. ،

كلمـا حاولـت اسـتراق السـمع إلـيهم أكثـر كلمـا اكتشـفت الفجـوة التـي صـارت بينـي وبـين العـالم: لا أقـوى علـى الـذهاب نحـوهم وهـم يـدنون منـي دون أن يتسـنى لهـم النظـر فـي عينـي أو رؤية ملامحي, كمن يمر على جدار أو شجرة يابسة.,

خلف زجاج (الفيمه) ينظر إلى الناس, كان قد وصل منذ وقت لا يزيد عن ربع ساعة, اختار طاولة تطل على الرصيف لحقوه بفنجان القهوة الذي طلب وسرّح نظره باتجاه العامة, كان البعض يبدو قريباً خلف الزجاج, يحدّق نحوه ، يحس بأن أحدهم قد ألصق عينه بعينه, ثم يرنو لصوت في عمقه ؛ غاية في الصعوبة أن ترى الناس دون أن يروك وفكر ساعتها بالله.,

دائماً تنتظم الأصوات في داخلي ترتد كل الأصوات حركة الأشياء داخل روحي , دون أن أستطيع لها رداً, تعبرني كشخص يغطس تحت الماء ، تأتي بعد أن تجتاز الجلود المشدودة للطبول, مدوّية مثل الطبول, دائماً كنت أعتقد أن الطبول كائنات تحاول منع أصواتها من الخروج من جوفها فتحتجزها في أعماقها وما يصلنا منها سوى صدى تكسرها, ثمة صدى في داخلي, صدى ضاج وحزين, دوّي... ربما أكون طبلاً, أسمع صوت تنفسها تكسرها, ثمة أشياء تتكسر, أصوات أشياء تتكسر, أتكون (بنت الجيران) أسقطت من يديها فنجان قهوة أو كوب شاي ، ربما فعلت ذلك عامدة أو ربما على غفلة منها, وربما لم تكسر شيئاً بعد و سواء كسرت فنجان القهوة أو كوب الشاي ، ما الذي سيغير في الأمر ؟ طالما أن ارتداد أصواتها في أذني هو صوت تكسّر لا أكثر،

أشياء تروى :

يقولون والله فيما يقولون أعلم أن أعماق العالم تتكسر وبفعل شظاياها العالقة داخل روح الكائنات يذهب العالم رحلته من الخريف حتى الربيع .

النيران تأجُّ في الفناء بينما جثتها ممدة على تل هائل من أحطاب أشجار التفاح, فتشع على الجدران المحيطة ويصل امتداد تلاوينها جدار سمعان لجهة الشرق, و أثناء صعودها وهبوطها كانت ترسم أشكالاً غريبة, ظلال يتخثر لونها في الوقت الذي يرقب سمعان النيران وهي تلتهم جسد أمه, مستقدماً لعنة شيوخ المذهب بفعله المشين.
كان ساكناً فحسب والنيران تلفح وجهه, لم يكن غاضباً عندما اجتاز العصر ودخل في الليل, صار البيت مسوراً بغيم من دخان أسود سميك، بينما جثتها تعبر الدخان وتنطلق في هواء الليل مسكونة بالذكريات ومكوّنة من لحظات حمراء تميل إلى الزهري فوق قماش من أسود باهت.,

عندما همّ باجتياز باب المغادرة بوغت ببائع يعرض زجاجات معبأة برمال ملونة, رأى فيها سفناً مفككة مطحونة بألوان لا تمت إلى البحر سوى أنها زرقاء ورأى جِمالاً تعبر صحراء صافية و واضحة ، أمسك إحداها وراح يتأملها .
كالرمل كانت أمه هناك, رآها ، صورتها تأتي الآن تعبر نار احتراقها وتأتي دافئة مفككة كالرمل ، تتدفق داخل جسده على شكل رعشات متواترة ، لكنه كان ينصاع لوجهها أكثر ، يرى نظرتها وهي تنسرب تحت غطاء رأسها وابتسامتها الوارفة الظلال, ابتسم لوهلة والتفت ليرى (أم العينين الخضراوين) تحاول جذبه أم أنه انصاع للحنين الذي استمر أبداً واهياً أمام البائع ، امتدت يده نحو جيب قميصه يريد شراء الزجاجة ، إلا أنه عدل عن ذلك ، أعاد الزجاجة إلى مكانها وقبض على يد الخضراء وسارا معاً, كانت الرمال قد فتحت في رأسه أقفال الأجوبة,قال لزوجته : لم تكن معنية بي .. لم يكن يعذبها إثمها بقدر ما كانت تفكر في تشظي جسدها و ألاّ يكون لها قبر أسوة بأخويها . ،

"سمعان... يا سمعان"

سال ضوء القمر عبر تعريشة التوتياء, كان ثمة ثيران تجري في دمه، يجول في المكان مطعوناً برائحة الدخان ، مسكوناً بذاكرة مشوّشة, ثم يبدأ بالصراخفيمتد ليصطدم بالجدار وتتلقفه أطراف سريان, ثم سرعان ما ينطوي على نفسه في الزاوية الجنوبية, يتكور على روح تنبعث منها حيرة قاتلة وأنين حيوان جريح.,

أكان عليّ أن أقتفي آثار نعالهم وهي ترسم ملامحها في التراب ، وكيف لي أن أفعل ذلك وأنا على ما أنا . العالم ظل يحملق بي طيلة هذه السنوات دون أن أراه أو يراني ، من يكون هنا ومن يكون هناك ؟ما دمنا حتى الآن لا نعي حوادث الجانب الآخر من الجدار. ،

أشياء تُقرأ

الموت... هذا هو الموت... أن نعي ذلك... يعني أن نكون قد عبرناه إلى جانب آخر .

لم يكن قد انتبه لوصولها, كانت قد أزاحت الكرسي وجلست قبالته ثم راحت ترقب نصف وجهه المائل نحو زجاج الواجهة, ثم فوجئ بها, اندفعت خضرة عينها ووشحت المسافة بينهما بلؤلؤ أخضر... فقط أخضر ، رأى النسمات الباردة وهي تعبر الأظفار

العرضية لمكيف الهواء, حشائش ذات أوراق عريضة تمتد طويلاً فوق رأسيهما دون أن يراها أحد.,

إن أنت نظرت إلى البحيرة فلن ترى سوى البحيرة, والبحيرة لا تبدوبحيرة إلا إذا أُبحرَ فيها وكان ثمة من يغطس في البحيرة, يطفو على وجه الماء. ضفدع أخضر, رجل أخضر مائل للزرقة أو أزرق مائل للخضرة, يطفو هناك على صفحة ماء البحيرة, والبحيرة داكنة يبدو ماؤها متعباً وهو يحمل عبر كل هذه السنوات الظلال الداكنة لرماد عالق في أجزائه , من كان الرجل الذي يطفو على السطح ؟؟ كان الجو حاراً, مشبع برطوبة تبدو كأنفاس متصاعدة لأناس يعبرون ثلج شتاء قاس.
أمازال هناك يبحر كرجل أخضر في عمق الماء الداكن؟ وإذا كان ثمة ماء فلابد من الإبحار وما الفارق أن تبحر في البحر أم في البحيرة وإذا كانت البحيرة باردة وقاسية ومغطاة, بالجليد فلابد أن الذهاب إليها سيكون ضرباً من التحول.ثمة هواء مالح يعبر الآن. ،

"سمعان.... يا سمعان"

كان التراب يضج بالموسيقى على الرغم من دائرة الصمت التي تتسع في الجهات, ثمة أصوات تنبض بالصدى, قادمة بالحنين من المضافة, ضحكات متواترة لكنها عارمة لمجموع من الرجال, لم يكن من أصوات تأخذني للنساء... أيكون عرساً؟ ربما عرس إحدى بنات الجيران، لم يكن ثمة زغاريد. وإن كان عرساً أم لم يكن... ما الجدوى من ذلك. ،

كلماته تفصم الليل وتحيله إلى كائن منسوخ إلى اثنين, يتكوكب صوته في الهواء وتدور دوائر أنفاسه, حارة تتكاثف في جو مائل إلى البرودة, هائمة على وجهها في فضاء مترع بكائنات الضوء, على شكل يراعات مضيئة تتهادى في الفراغ أمام عينه أو متناثرة في صحراء سماء كالنجوم, ثم ما تلبث يده أن تمتد نحو إحدى اليراعات , كان يريد أن يلتقط الضوء المنبعث منها , امتدت يده, امتدت طويلاً, فقط كان يضم أصابعها على الفراغ ، يلتقط اللاشيء ثم ينظر إليه يتأمله في راحة يده ثم يبحث في الأسفل وكان شيئاً قد انسل منه ،تلفظه الحيرة نحو الجدار، يغرز رأسه هناك, في طين الجدار ثم ما يلبث أن يسبل جفنيه على أوهام, أحلام, ربما على سفر في قفار مترامية و لا نهائية, معتمة, أو مضاءة, ملونة أو كامدة . ينسرب الصوت ناعماً, هادئاً, متواتراً,

حاداً, وربما كان رفيعاً لدرجة ما، لكنه بالتأكيد كان متموّجاً كماء البحيرة, متلاشياً في فراغات الطين التي يلامسها أثناء عبوره زمناً، ربما كان زمناً آخر. ،

"سمعان... ياا سمعان"

"هنية" رأته, كان ممدداً بجانب الجدار كحيوان نافق ، دنت منه, ظنت أنه ميت ، لكنها حين لم تجد دماً يسبح فيه, اقتربت أكثر.. أرادت أن تتأكد من تنفسه, ورأته آنذاك منكباً على وجهه مانحاً إياها ظهره بثيابه الممزقة ، المتهرئة بفعل الشمس والريح, أودعت ركلة خفيفة في خاصرته, دون جدوى ، فزادها يقيناً بأن الرجل دون حياة, لكنها فجأة أحست بخوف يتصاعد في روحها عندما وصل إلى سمعها ما يشبه الحشرجه ، وحكّ فضولها السؤال عن هويته , دنت أكثر, بسطت راحة يدها وصنعت تربيته خفيفة بين كتفيه فتمزق القماش البالي وتصاعد غبار السنوات أمام عينها ، لكنها مع كل ما رأت حتى الآن لم تجد جسداً بالياً, كان صافياً, نقياً كالزجاج دون رائحة ، مكسواً بجلد الأحياء وبرودة الأموات, هزّته دون وعي ثم ما لبثت أن قلبته على ظهره, لم يكن ليناً, كان صلباً ما سهل الأمر عليها ورأته حينها, رأت النور الذي ينبعث من وجهه, و ارتدّت إلى الخلف عندما لمحت عينيه الواسعتين تدوران في محجريهما وكأنهما تبحثان عن شيء ما, لم تصدّق ما ترى, تلاحقت أنفاسها, جف ماء فمها, أرادت أن تصرخ, كان لسانها مرمياً كحجر أسفل حلقها, اعتقدت أنه قال شيئاً على الرغم من أنه كان دون أنفاس, دون ريح أو روح تخترقه, لم يودع أذنيها أكثر من بضع كلمات قال لها:

ـ ضويلي, مش شايف من العتمة".

ما جعلها تنهض فتأتي على نصف إبريق الماء بجانب فراش نومها بينما تردد: هذا هو ... هذا هو ..."سمعان"

وحدها تدور في جوانب البيت, رائحة تبغ تعبر نافذتها فتطل من هناك ترى العصافير تميل نحو الدجاجات, تحط حذرة ثم ما تلبث أن تتخلى عن ذلك فتلتقط بعضاً من طعام تجده هناك.

حشرة (يعسوب أو ما شابه, تصطدم بالزجاج المثبت بالمسامير في الوقت الذي مازال الراديو يعس بأغنية قديمة يتصاعد صوتها كابياً ، رمادياً يميل إلى ظلال زيتية, ورأت شبك النافذة. وقد قسم المساحة أمامها إلى قطع متوازية, رأت الجدار المتقشر مرمياً هناك, مسكوناً بالغبار والذكريات, حامت في البيت...

لم تجرؤ على تذكر وجهه, كانت تريد أن تشغل نفسها بأشياء تبقيها بعيدة عن ذلك, لكنها لم تستطع, تذكرت كلماتهبينما تلقي بفتات الخبز على الشرفة كي تهبط العصافير.

كانت روحها آنذاك مغسولة و نقيّة كالنور الذي امتد أمام وجهه ، خافت, انهدت على الكرسي خائرة القوى، فكرت كيف أنه يطلب الضوء على الرغم من كل النور الذي انبعث من وجهه تلك اللحظة.
لوهلة عاشت فوضى روحها وهي تستعرض شريط حياتها , جسدها الذي باعته لكل الذاهبين والقادمين, فكرت بسليمان وروحه الهائمة في الطرقات, تبحث عن مأوى ، ورأته واقفاً يعاتبها على تدبير مقتله ويشكو لها الهواء الذي يتخلل ثقوب جسده ، أرادت أن تضرب صدرها تعفّر رأسها, تبدد شعرها, لكنها لم تفعل أي شي من ذلك, فقط كانت غارقة بدموعها, مغسولة بماء التوبة.
روحها مازالت تحوم في أرجاء البيت بينما جسدها متهالك على الكرسي عاجز عن الإتيان بأدنى حركة.,

كان ثمة ضباب لزج عالق في الضفاف العالية للبحيرة, أشياء ذلك الصباح لاتني تتماوج وكأنها تحاول منح نفسها وهم العبور إلى شكل نهائي, حتى خطواتها لم تدرك الرزانة التي اعتادت عليها وهي "سعاد" ... الآنسة سعاد، كانوا يصرّون على استباق لفظ اسمها بالآنسة وكان ذلك يجعلها تذوب داخل جسمها وتحس دائماً بأن ثيابها تفيض عنها.
يخفق ثوبها الطويل وهو يخفي آثار خطواتها باتجاه (البيت الكبير) بينما حافظت على خصلات الهواء داخل شعرها البني ذي التجاعيد و النوابض المنسابة على وجهها, دون أن تقفصه بأي غطاء ،فعبرت كامرأة قادمة من تاريخ و زمان مغاير، وقبل أن تلج قوس البوابة رأته هناك , آخر سلالة سمعان, محمولاً على شيخوخة تبدو مباغتة ومغموراً بضباب يبدد ملامحه بين الحين والآخر, ارتطمت حقيبتها بالأرض وامتدت عيناها نحوه, تلك مسافة طويلة التي تمتد الآن نحوه, مسافة تخترقها باتجاه آخر, اتجاه يذهب بها نحو زمان آخر.,

كانت البقرة غارقة في ضياء بنفسجي يوحي بأنها لم تعد تنتمي إلى عالم كالعالم الذي يدور في فلكها, خارت كثيراً ، وفكر الصبي عندها ماذا لو كانت البقرة تموء ؟ ... نعم تموء كالهرة... أكان هذا سيغيّر في الأمر ؟ أم أنه... هل ماءت البقرة حقاً أم خيل إليه ذلك. ،

كانت رأسه مترعة بالزهو بينما يلاحق ببصره سرباً من البط وهو يحط فوق مياه البحيرة, ثم ما لبث السرب أن خفق بأجنحته وعلا نحو السماء يطوح بأجنحته هواء الغيوم المنخفضة فيتخذ طريقاً بينها . هو ذا ينطوى على نفسه هناك خلف الجدار ،

يجتـر نظـرة ثابتـة ، مسـتقيمة ، ذاهبـة نحـو الفـراغ ، فـي الوقـت الـذي انسـربت فـي أذنيـه همسـات دافئـة ممتزجـة ببحـة ناعمـة, صـوت لا يشـبه الأصـوات البشـرية بقـدر مـا يشـبه حفيف أوراق الشجر. ،

"سم..عان ... يا اا سمعان"

سـريان وهـي تنـأى فـي المسـافات ، كانـت تتسـامى أكثـر إلـى روح تـنهض وسـط الغبـار الذي بدأ يتصاعد في الطريق الترابي خلف عجلات محمّلةببضع(شلوات) من التمر.
كانـت (سـنية) قـد أدارت ظهرهـا للشـمس الصـاعدة وقـد ثبتـت نفسـها بعارضـة خشـبية تعلـو قمـرة السـائق, كـان وجههـا للـريح ولـم تسـتطع الالتفـات لتـرى المدينـة وهـي تغـرق بالضـوء ، وقـد عبرتهـا قطعـان سـراب صـباحي امتـد مـن أفـق الشـرق نـزولاً عبـر الـتلال الواطئـة نحوهـا..., ربمـا لأنهـا خشـيت أن تنزلـق فيقـع أحـد الشـلوات عليهـا, إلا أنهـا فيمـا بـدا كانـت مشغولة بما هو أكثر، لم تكن تفكر بشيء أكثر من أختها (هنية).
أمهـا اسـتقرت بجانبهـا ، عمتهـا كانـت تأمـل أن يصـلن قبـل أن تشـتد حـرارة الشـمس ، لأنهـم سـيبدين غارقـات فـي بركـة مـن العسـل،أما جـدتها التـي جلسـت قبالتهـا فقـد التثمـت بغطـاء رأسـها, كانـت فـي عـالم آخـر بينمـا تركـت جسـدها ينـوس مـع الوعـورة المهلكـة للطريـق... روحهـا كانـت تغـامر نحـو (هنيـة), "كـان يجـب أن تبقـى معهـا" كانـت تحـدث نفسـها ، كـان ذلـك أفضـل لامـرأة بعمـري, ثـم إننـي مـا أحببـت يومـاً سـيدة البيـت الكبيـر التـي أخـذتها للخدمة منذ نعومة جدائلها.
ـ الذهاب إلى(يافا) ليس بالأمر السهل.
أخبرت ولدها بينما تمسح عن وجهها غبار السنين:
ـ هنية بتديرْ بالها عليّ و أناإمرأة عجوز .
ـ هنية عندها إلي بكفيها
خيل إليها أنها تمديدها, تلتقط يد هنية.
ـالله يبعتلك ابن الحلال إلي بيستاهلك
سـنية أرادت أن تتبـول ،كـان يمكـن أن تفعلهـا فـي كابينـة السـيارة الاّ أن شـلوات التمـر منعتهـا ، شـلّها الخـوف بينمـا راحـت أمهـا تطـرق قمـرة السـائق فـي الوقـت الـذي تمطرهـا بوابـل لعناتهـا. فـي تلـك اللحظـة خافـت سـنية علـى أمهـا ، إذ تصـورت الغضـب الـذي سيحشو بـه أبوهـا عينـه وكانـت تتخيلـه وهـو يحولـه إلـى صـفعات وسـيل مـن اللكمـات، تنهـال علـى أمهـا لأنهـا غالبـاً مـا كانـت تصـالب ذراعيهـا أمامـه للـدفاع عـن البنـات، كانـت الطرقـات قـد أقفلـت رأس السـائق وأغفلـت عينيـه عـن الطريـق فانزلقـت العجلـة فـي حفـرة تسـتند إلـى حافـة ناتئـة فـانفجر الإطـار ومالـت السـيارة بفعـل الحمولـة ، ولـم تجـدِ منـاورات السـائق للحفـاظ علـى توازنهـا فانقلبـت علـى جانبهـا الأيمـن، ثـم تابعـت منحرفـة باتجـاه اليسـار قلـيلاً تتقاذفهـا الأشـجار الموازيـة للطريـق فيمـا بينهـا، حتـى اسـتقرت هنـاك كتلـة هامـدة دون أنفاس ، معجونة من الحديد والدماء.,

سعاد وعبر هذه السنوات لم تستطع أن تمنح زوجها ما يدفع بسلالته نحو الأعلى ، ليرى أزهار أبنائهتتفتح أعلى شجرة العائلة ، و عندما أدركت أن البوار قد لحق أرض رحمها حاولت إقناعه بالعدول عنها والمضي إلى أخرى ، لكنه كان يرفض محتجاً برغبته فيها ، لكنها كانت تلتقط فتاتاً من أحاديثه عن عزمه إفناء سمعان وإنهاء هذا الإرث الذي أثقل كاهله طيلة هذه السنوات ، كان يردد بعد أن ينبعث دخان تبغه في أرجاء البيت

ـ ضقت ذرعاً بهذا المرض الذي اسمه عائلة .

وعند عدم احتماله الهراء الذي يتصاعد من فم الناس كدخان التبغ كما كان يصف،حزم حقائب سفره ومضى وإياها قاصداً طرابلس في لبنان حيث أمضت أمه سنوات طفولتها وشبابها.

هي ذي الآن تعود بدونه ، لم تكن راغبة بالعودة ، لكنها تبر الآن بوعد أطلقته أمام موته ، كان لحظتها صافيا كالمساء ، تحيط وجهه هالة غامضة ، عندما بعثر صياغة ركيكة لكلمات بدا أنها علقت بين شفتيه ، استطاعت أن تلتقط منها ، (البيت الكبير) ، ثم بدا لها كأن اللغة قد انحسرت عن رأسه ، فتركت في أذنه وعدها بالعودة ، ثم أنه نحت ابتسامة على شفتيه وكرر(البيت الكبير) وهو يلفظ أنفاس موته بعيداً عنه .

مرّ ذلك بلمعة ضوء بينما تحدّقإلى سمعان المجنون، وخيّل إليها أنه ابتسم لها ، أيكون قد عرفها ؟! أقنعت نفسها بعكس ذلك .

كان البيت مغموراً بعبث النباتات التي تسلقت الجدران وفجرّت الأرضيات كما لو أن زلزالاً مر بها .

عندما جالت عيناهافي المسافات القريبة فالبعيدة فالأبعد, أحست بدفء ناعم يسري في خلايا روحها, رأت كل شيء, ذاكرتها وعت اللحظات التي أخبرها عنها أو التي عاشتها ولأنها لم تكن قادرة على التمييز بين ما تذكره حقاً وبين ما روى لها فصار جزءاً منها, ولأنها ناعمة كبتلات مبتلّة بالمطر حامت في الأرجاء ، وطافت في أروقة المكان فلم تجد أي مرافق أو قبور، وتذكرت رماد أمه الذي سكبه ذات يوم في مياه البحيرة, ضحكت في سرها ، ثم سارت نحو البحيرة وهي تهمس:

ـ مجانين أولاد سمعان... كلهم مجانين

ورأت وحشتها وهي تستعد لاقتناء لحظاتها وماجت مع الماء المترادف فارتعش عالمها، وفاض بالصور، فتلاحقت واحدة إثر الأخرى بينما تصعد درج العليّة التي مُنعت عنها طيلة أيام طفولتها .

لم تبتغ أكثر من إلقاء نظرة نحو العالم الذي بدأ يترسب في قاع روحها, ومن هناك, من فوق, من النوافذ التي أشرعت أجنحتها للجهات ، خيل إليها لبرهة بأنها ترى الهواء وهو يدور بين الأشجار كنسيج حريري أبيض ضارب للشفافية, يتغلغل بين جذوعها ,

يخترقها, يكّون ملامحها، ثم يمضي مسرعاً نحو السماء. ولم تعرف حينها أكان نسيج الحرير الذي حف الأغصان أم الأوراق الحائرة إلى أي اتجاه تميل . ،

وحيدة هناك تعبر بخطواتها الوئيدة شجرة التوت وتمضي عازمة نحو الجدار, جسدها مشرنق بملاءة بيضاء كانت قد أمدتها بروح نازعة نحو السكينة, شعّ رأسها والشمس تغالب موتها اليومي, ما رسم ظلها على الجدار بلون أسود كامد ، وفكرت وهي تحدد بقطعة طباشير بيضاء شكل مربع رسمته أخيراً فوق الطين المتهالك , لِمَ لا تأخذ ظلالنا لون ثيابنا و صفات بشرتنا , ثم راحت تراقب ظلها, أغراها أن تقبض عليه،أن تحدّه بالطباشير, أن تلونه بالأبيض, لم تكن متأكدة من أنها حادثت نفسها آنذاك ، وانتبهت إلى أن سمعان المجنون قد يلتقط كلامها لأنه لابد قابع على جهة الجدار الأخرى، كانت هادئة تقوم بعملها بوتيرة واثقة على الرغم من الصخب التي يفتت دعائم روحها, واستمرت تحفر حتى أخرجت للدنيا فراغاً يميل إلىالمكعب في عمق الجدار ، نظرت إليه، تأملت فيه, كانت تراه يشير إلى بلاهة أكثر مما يشير إلى شيء آخر, ورأت نفسها مخفورة بابتسامة تشعّ على وجهها دون أن تلحظها ودون أن ينعكس ظلها الممتد أمامها على الجدار, الظلال أضرمت حيرتها مرة أخرى ، وتأكدت بأن هذه الكائنات السوداء التي تلاحقنا لا يمكنها أن تعكس أفراحنا و أحزاننا، وجدت نفسها ثانية متروكة لمحادثة نفسها, قالت وهي تغرس شموعاً ثلاثة في أرضية المكعب: مثل طاقة أمل .
, و عندما عاودت النظر من مسافة أبعد قليلاً تأكدت من أنها قد فتحت نافذة لكائنات تعيش داخل الجدار، نافذة صغيرة مضاءة تحاول وصل عالمين، ولسبب ما عادت تفكر بالحلم, كانت تعتقد بأنها الآن تضيء درباً مظلمة, هي ذي الآن تخضع لجنون حلمها, أسمته (سيدي سمعان) ، باسمه تلت صلواتها, باسمه أطلقت أدعيتها ، وأعلنت خوفها لديه ، ومنه اشتقت براءتها من لعنة تاريخها ، ثم أنها نشرت زهور فضائله في الأجواء العابقة بالرجاء, حتى صارت النسوة تأتين إليه ، تبسطن راحاتأياديهن فوق طين جلده الخشن و تقبلّن الأحجار التي تحيط به ثم يأخذن نصيبهن من البركة بعد أن يأخذ نصيبه من الشمع، ثم أنهن لم ينسين. سمعان المجنون فصرن يخصصنه بتفاحة من هنا أوكمشة زبيب من هناك ، صُرّة من الخبر يرافقها شيء من الخضار. أما سمعان فكان يأتي على ما يؤكل ويغلف نفسه بما يُلبس . ،

أشياء لا تقرأ و لا تروى

الناس تضحك على المجانين لأنهم فقدوا عقولهم ، أما المجانين فيضحكون كثيراً على عقل العالم .

غمرتني طيور الضوء مرّة أخرى، منذ وقت طويل لم أرها ، لم أحس بخفق أجنحتها, ثمة واحد يحوم أمام وجهي, يقترب غير وجل كذبابة لزجة، يهبط نحو كتفي ثم تنكمش مخالبه بما تبقى لديّ من ثياب, إنه الآن ينقر رأسي أحس بالعالم يهتز ، تتفكك أجزاؤه, إذ ليس بالأمر السهل أن ينقر طائر رأسك.
الأشجار تفقد عصافيرها و الهواء يعبق برائحة آلة موسيقية غير معروفة بالنسبة لي حتى الآن, ثمة أوتار تنسحب على أوتار ربما كانت أوتار (تشيلو) ضخم ينوح فترافقه نبضات خافتة (لكونترباس), أراها الآن الأصوات وهي تتمدد في الفراغ الغامق أمامي, تتململ, تأخذ ألواناً لا تنتهي, الأصوات وحدها ما يفلت من الزمن وحدها تعلن موتها أثناء ولادتها. فكرت لو أننا نستطيع أن نرى أنفسنا بنفس الطريقة لو أننا ننتبه إلى أن مشاعرنا تخلق وتموت بنفس الطريقة ، مشاعرنا هي الأشياء الوحيدة التي تبقى حُرّة, لكننا نرفض الذهاب خلفها دائماً.
السماء تبدو متسخة بغيوم داكنة , ربما عابرة... الشمس تسيل بين الغيوم بلون أصفر كسواغ حشرة . مرّة أخرى يأخذني الضوء إلى القتام.,

ساورها شعور وهي تنتقل بين الغرف, تصعد أدراجاً وتهبط أخرى بأنها عالقة في متاهة , لم يكن الفراغ ما يحيط بها فقط, وقتها أحست سعاد... الآنسة سعاد بأنها تحس فراغاً لا يطاق ، المكان أطبق على روحها, كانت تفكر في دخيلتها أنه يرتديها, الآن كما ترتديه إذ كانت ستشعر بأنها عارية إذا ما غادرته وسواء أكانت تلبسه أم أنه يلبسها ما الفارق في هذا ، أدركت أخيراً أن مصيرها مرتبط بآل سمعان للأبد وأن تاريخهم محفور في جسدها ومدون في دفاتر قلبها وذاكرتها.
تذكرته وهي تفتح شبابيك الربيع على الدنيا بدالها الجدار من الأعلى غاية في البساطة رأت سمعان المجنون يدور على نفسه هناك ، رأت لضمة السواد الذي خلفته الشموع على الجهة المقابلة فانتبهت إلى أن عالم سمعان - على الرغم من البساطة التي تغلفه - لا يخترق وأن هذه البساطة تحجز خلفها متاهات لا حدود لها.
وعت الآن لماذا طلب منها العودة, تذكرت ذلك وسهمت في الأفق ثمإن العصافير شاغبتها, فرّت ثم حطّت على (شجرة التوت) وعندما امتد بصرها مع عساليج الشجرة المتطاولة نحو الأعلى رأت نفسها هناك على السطح طفلة صغيرة تلعب مع بقيّه الأولاد (دب أعمى) ، رأت طفولتها تتعثر أمامها, رأت خوفها عليه يوم سقوطه عن السطح ، في الوقت الذي كانت (أم الغيث) تدور في أزقة سريان باحثة عن المطر.,

كانت الدهشة قد استوطنت عينيها منذ ذلك الحين, لم يخفق لها جفن أو تأتي بأي كلام يخفف عنها, فقط سألت عن (سنية) فأردفوا بأنها انتقلت إلى دار الحق كباقي أفراد أسرتها.
سيدة البيت رفّ قلبها لمصيبة لا يكاد يحملها جمل , دنت منها ، غمرتها بشدة ثم همست في أذنها
- أنا أَهْلِكْ .
كانت ناعمة إذأبعدت سيدة البيت عنها برفقثم مضت تقلب شؤون البيت دون أن تتلفظ بكلمة واحدة ،نزلت الأدراج الجانبية ، ثم دلفت نحو مستودع الحطب ، تفقدّت حاجات البيت ورتبت بعض الأجزاء المتناثرة.
كان هواء الشتاء مكحل بخصلات ناعمة من المطر, كومت الأحطاب في حزمة ثم غمرتها وآبت بها نحو البيت ، وقبل أن تنعطف باتجاه المدخل رأت قامته الهائلة هناك ، مدّت خطواتها تريد اجتيازه, إلا أنه وقبل أن تعبره ، قبض على ساعدها و استقبل ذعر وجهها بكلمة واحدة : بتزوجيني .. ؟
يومها لم تمتلك رغبة بفعل أي شيء يكسرالوقار المرتجف لهذا الرجل ،أما هو فقد أحزنه أن يرى مرارتها تتحول إلى صمت, أراد أن يواسيها ، أن يخفف عنها, يُخرج النار الملتهبة في جوفها , يجعلها تبصق في وجهه حتى, أن تفعل أيشي يعيد بريق عينيها الذي غار عميقاً في روحها.
أفلتت من قبضة يده بالاتجاه نفسه, في ذلك الوقت رافقها دعاء الجدة: الله يبعتلك ابن الحلال .. تغلغل في قلبها دون أن تراه يتجسد, لم تفلح في استذكار تتمة حديثها لكنها عاشت لوهلة مع شجيرات ، شجيرات امتدت إلى ذاكرتها, شجيرات كانت تتطاول إلى سماء بلا غيوم والأشجار وحدها ما كان يبرق كبقع صفراء من فراغات ذاكرتها وشيئاً فشيئاً جفت ينابيع دموعها, ثم صارت تدير ظهرها وتمضي غير عابئة بشيء ، حتى عندما زوجتها سيدة البيت من سليمان.
تبعها إلى العلية, دخلت ثم أردفت الباب ، خلعت ثياب عرسها ثم تعرت أمامه وراحت تتجول في الغرفة, طوت فستانها ثم أودعته في الخزانة ثم مضت نحو المرأة, رأت وجهها هناك, أزالت مساحيق زفافها ، ثم مالبثت أن اندست في فراشه, غمرها ثم همس, في أذنها أنه يمكن أن ينتظر . لم تجب وكأن الأمر لا يعنيها ثم أنه اعتلاها ، لكنها ضلّت مشغولة بالأشجار, ثم أغمضت عينها. حتى أكمل ما بدأ. ،

دائماً تصاغ روحي من جديد, أيستطيع المرء إعادة نفسه ، ينبثق سراب دائم يغشى الأشياء, يعيد ترتيبها ثم ينسرب إلى روحي . أعي أشياء لم أفكر فيها من قبل, أندفع للقول أنا ذاهب إلى أنا من جديد, لكن ليس للدرجة التي أستطيع فيها أن أعبر إلى شكل آخر فمازلت عاجزاً عن الحركة, مطعوناً بهذا الجسد الذي لا معنى له, بهذه الثياب التي لم تعد تعرف الفناء, وحدها ما يرغمني على الإحساس بأن العري أجمل ثوب

يمكن للمرء أن يرتديه, أفكر في الملابس الآن أذهب إليها, إنها تعبير عن حاجة الإنسان إليها منذ وقت طويل, لو كان لأجسادنا المعلقة في خزائننا روحٌلأخبرت عنا ما لا نعرفه أبداً.
من ذا الذي يعبر هناك بجوار النافذة, ثمة همس ناعم, زقزقه عصافير تتصاعد, لكن العصافير نائمة الآن، أم أن الضوء الذي يغمر وجهي يجعلني لا أَحُدُّ الليل عن النهار..

مع كل ذلك ظلت تفكر بسليمان, ظل يبتسم لها في كل الوجوه التي تحج إلى (سيدي سمعان) ، ثم ما لبثت أن اندست بجانب الجدار يدثرها ليل طويل ولحاف من الصوف ، تعبر النهارات والليالي غارقة في بكاء صامت، حتى أحست بأن الضوء يغمرها لدرجة أنها لم تستطع أن تجد ما تحتذيه عندما قررت الذهاب.
"هذا الجسد بات طيفاً " كانت تفكر بينما تمضي حافية تتلمس دربها نحو البحيرة ورويداً لامست بقدميها العاريتين الماء البارد, سرت فيها رعشة حالكة فتقدّمت وساورها شعور حائر إذ لم تدرك ؛ أكان الماء يرتفع ؟ أم أن جسدها هو من يغور عميقاً, تراءت لها أشباح الماء ، كانت تحس بهم ، كائنات تسبح في فراغات مثقلة بالسائل الرجراج, باغتها دفء مفاجئ على الرغم من برودة الماء فتقدمت بضع خطوات ، و وسط الضيق الذي راح يلف صدرها فيلاطم أمواج تنفسها أرادت لوهلة أن تتراجع, أن تخطو إلى الوراء, إلا أنها أسلمت نفسها لأوحال القاع تنشب في قدميها فتمنع عنها الحركة، فردت يديها كفراشة ولبثت هناك يحركها الموج لا أكثر , مستنفدة الأحاسيس ، خائرة القوى ، لم تستطع أن ترى سقف الماء وهو يغمرها, لكنها أحسست به وهو يسري في عمقها, يعبئ فراغات صدرها, كانت المرة الأولى التي تشعر فيها بأنها كائن ممتلئ لا حدود تفصل بين داخله وخارجه, لحظتها فقط أطلقت آخر هواء في رئتيها وطلت وجهها بابتسامة مائلة وذهبت واقفة كذلك..

أقعى أمام سيدته على ركبة ونصف ، لم يكن يشبه شيئاً لكنه حدس أن في عيون سيدة البيت يكمن خلاص روحه من آلام هذا الهوى الذي استبد به، هوى هنية وهو يراها تغالب أحزانها بعينيها المفتوحتين إلى أقصاها ، كانت تغمر قلبه بسياج صبّار أخضر، في نفس الوقت الذي غادرته الحيلة وصار عاجزاً عن فعل أي شيء يخفف عنها.
-أقسم بالله بأنك ستنفذ ما أقول...
قالت سيدة البيت
وبعد أن أفعل.
-سأزوجك هنية وستكون وصيّاً على سمعان حتى يكبر .. هذه وصيتي..

تصلب الهواء أمامه , صارت الأنفاس قِطعاً من جليد, كان ثمة نعيق حاد لطائر لم يعرف ساعتها بأنه غراب, وحده يحتفي بالظل الذي يمنحه الجدار ، بينما الريح تفرد ثوبها فوق الجرود ، و تصفّر بأغنية دائرية, حينها خاف من الريح, قفز كيس ورقي فوقه ورآه يحوم ثم يصعد أدراجاً ويمضي مع الريح, روّعته فكرة أن تمضي الريح بالجدار إلى أعلى ،غرز قدميه بالتراب ثم أسند ظهره للجدار يحاول أن يثبته, ثم صفرت الريح, صفرت كثيراً وسَمِعَ صوتهُ آنذاك... سَمِعَ روحاً يتقدم منه، لكن الصوت بقي بلا ملامح ، حبيس أحرف لا نهائية, أحرف تميل نحو الاحتمال أكثر من اليقين, أراد أن يُخرس الريح... يجعلها تَصمت حتى يتأكد من الملامح العابثة للغة, صرخ عالياً: اسكتي, تصلب الهواء ثم غرز أذنه في الجدار, وإذ ذاك سمعه, كان نقياً واضحاً كشجر عارٍ دون أن يداهمه وعي أو أي بذاءات من التي يطلقها البشر نحوه . ،

"سمعان.... يا سمعان"

فتحت خزانة ثيابها, أردفت ملابسها المعلقة ثم اختارت شيئاً أكثر رشاقة, تأملت وجها في المرآة واستدارت قليلاً لترقب نحافة خصرها ، انسجام ثيابها مع تفاصيل جسدها ، ولم تكد تمضي بضع دقائق حتى عبقت بعطر خروجها.
على عجل أغلقت الباب خلفها ، وارتقت إلى سمعها سريعاً نقرات حذائها فوق الدرجات البازلتية التي أخذتها إلى صحن الدار, ملأت صدرها هواءً ناعماً،نقياً،ممزوجاً بشذرات من رائحة عطرها, بضع خطوات وأعلنت للدرب وجهة سيرها, امتد خيط تقدمها من الجهة الخفية للبيت ، ثم انعطفت نحو اليسار، وعبرت طريقاً ترابية منحدرة امتدت في عمق أبنية الرومان المتهدمة, وأخذها زقاق ضيق معشوشب نحو السوق ، هناك ابتلعتها جموع الناس, تذكرت بأنها لم تعبر هذا الدرب منذ أيام طفولتها , لبثت برهة تقاذفتها الأكتاف حتى نفذت نحو مبنى الحكومة ، كان ثمة صندوق بريد ذو لون أخضر شاحب ، أو هكذا بدا لها, غرزت رسالتها في عمقه ثم عادت أدراجها قاصدة البيت. كانت لحظاتها خفيفة رشيقة تتقافز مثل الزمن ، واستطاعت أثناء ذلك أن تعبر نحو المكتبة لتبتاع بضعة دفاتر مخصصة لكتابة الرسائل وكيسين صغيرين من ظروف بيضاء محاطة بمربعات مائلة من الأزرق والأحمر.
عندما وصلت إلى البيت كانت الشمس قد بدأت بالانحدار نحو خط المساء فعكس أنين أفولها لوناً كابياً على جدار سمعان, وتأملته !! لأول مرّة تقترب منه إلى هذا الحد أذهلها مقدار الشمع المذاب في كوّته و أوقد دخان الشمع المتراكم حول الكوة في نفسها نزوعاً إلى الرهبة ، ودون أن تسأل نفسها ،أمسكت علبه الثقاب, أوقدت واحدة ثم بدأت تشعل الذبالات المائلة للشموع, امتزجت رائحةإحراق الكبريت برائحة الشمع ، وراحت تتأمل النار الصغيرة المنبعثة منها ، ساعتها فكرت بـ هنيّة المرأة المغلقة على

أيام طفولتها ، ومرّ شريط طويل من الأحاديث التي اعتادت سماعها من تلميذاتها في المدرسة ، أو من النساء اللواتي يزرنها ليوقدن شموع "سيدي سمعان" بعد أن يفدن إليه كي يوفين نذورهن ، وبينما كانت تصعد درجات البازلت أفلتت منها التفاتة نحو الشموع التي راحت تذوي على مهل، في تلك اللحظة كانت هنية تصعد معها درج البيت, رأت نفسها وهي تطارد رعشة من الزمن, فكرت ربما على غفلة ؟؟ كيف أن الإنسان يمكنه أن يفني حياته بينما يطارد لحظةكتلك . ,

بدا كأن نعاساً سديمياً يطبق على روحه, بياض عينيه أزاح سوادهما. كان ينظر إلى اللاشيء , نقطة واحدة فقط كانت تهمه دون العالم ، شيء ما على مستوى رؤيته يجعله يضم ركبتيه نحو صدره ويرخي ذقنه بينهما ، بينما يواصل طعن تلك النقطة بحدّه نظرته.
يبدو أنه يستفيق الآن, تأخذه ارتعاشات الكهولة نحو الوقوف ، ثمة صوت يستفيق في رأسه ، يستدير مسرعاً ثم تصعد الكلمات نحو لسانه فتعلق بين شفتيه ثم تخرج بائدة متقطعة دون ملامح ، ثم يسدد إصبعاً نحو الجدار ويهدد:
أ...أ.... أ.... ن.....ت, أ...أ...أ, خ.... ر.. ا.. س
ثم يحاول أن يصوغ شيئاً من جديد فتخرج الحروف مشوهة, يجن عندها فتأخذه الخطوات رويداً نحو اليسار ثم سريعاً يتراجع نحو اليمين ثم ما يلبث أن يدور على نفسه ويدور حتى ينهكه التعب فينهدُّ في الزاوية ثم يتكور على نفسه من جديد ويعود فيرسل عينيه في ذات النقطة .,

ها أنا لديكالآن , لم يكن ذنبي أنهم ألقوا بي هنا, في هذه البقعة من الدنيا، وطيلة هذه السنوات بينما أنا مطروح في العراء ، تتعاقب المواسم فوق جسدي الذي فقدته منذ زمن بعيد (أترى كم يكون صعباً أن يكون لك جسد لا يعنيك).
مازالت الريح تعبث بالخيوط التالفة لأنسجتي.
هل أزعجك؛ أنا ما أردت سلبك مكانك هذا صدقني ! وعلى الرغم من أنني أعلم أنك لا تستمع إليّ غالباً, لأنك أكثر ما تكون مشغولاً بجسدك الذي تدور به محاولاً قرع أبواب الهواء دون أن يفتح في وجهك باب واحد ، جسدك كذلك يتقمص روحك الحائمة فوقك كغيمة يخترقها ضوء شحيح (أنت على الأغلب وكل من يمر بك لا يرى ذلك, هذا إن كانوا ينظرون إليك أصلاً)
أتراني الآن كيف أقاسمك نصف العالم الذي عشتَ فيه ، ولكن مرّه أخرى أقول لك: لم يكن ذنبي.... هم فعلوا ذلك... هم أرادوا لنا المصير نفسه, أتستطيع أن ترى الآن كيف أننا نتقاسم المصائر نفسها أتعرفهم... لا تعرفهم حقاً... أتعرف على الرغم من ذلك

فـإنهم هـم الـذين منحونـا النظـر لبلاهـة عـالمهم المضـحك الـذي غالبـاً مـا يصـطنع الجديـة والانهماك بمتابعة الحياة برغبة عارمة.
إننـي الآن أعبـر مـن قبـر إلـى آخـر. دون أن يتسـنى لـي أن أمـوت, ألا تجـد فـي ذلـك عبثـاً وحزنـاً دافقـاً... أريـد أن أمـوت فقـط أن أمـوت مـن يمتلـك الحـق فـي ألا يمنحنـي ذلـك. أغلـق فجوة حياتهم الضاجة وأتنعّم بصمت القبور.
ـ هل أزعجك ؟ أتعرف الآن ما الفارق بيني وبينك.
جسـدك الـذي تكمـش بروحـك المتآكلـة يجعلـك تـرى فـراغ العـالم الـذي يحتويـك... ألـيس مـن السخرية أن يكون للعالم عقل. ،

لم تكن أكيدة من أنها عبرت حاجز النعاس إلى النوم ، أم أنها حقاً باتت في ممالك الأحلام, رأته واقفاً بالباب, كان متعباً ، وجهه يعبق برائحة الذكريات, الصور التي ترادفت أمام عينيها ساعة رأت قامته تغلق درفة الباب لا تعدُّ ولا تُحصى ، كانت حياتها تعبر في تلك اللحظة و رأته أخيراً يدلف نحوها ناثراً صقيع الماء الذي يبلل معطفه الطويل ورذاذ السنوات التي بعثرتها وقت غيابه.

هبطـت حقائبـه علـى الأرض وألقـى فوقهـا معطـف الخـاكي الطويـل وتقـدم نحوهـا ،بينمـا هـي قابعـة فـي الـذهول , مغمـورة بضـوء السـرير الخافـت , غمرهـا فبـدت صـغيرة جـداً بـين ذراعيـه, ووجـدت نفسـها تحـرك يـديها تحفّـان تفاصـيل كتفيـه قبـل أن تقفلهمـا خلفـه ، فتضـمه كمـا لـم تفعـل طيلـة حياتهـا ، ولـم تمـض لحظـات حتـى أطلقـت عينيهـا فـي مجاهـل عينـه ، غمرتهـا رجفـة طاغيـة فارتـدت للخلـف, أجفلهـا الأمـر إذ بـدا أنهـا تغمـر شخصـاً لا تعرفـه ، أو ربمـا تـذكرت وجهـه منـذ عـدة أيـام أثنـاء مرورهـا فـي السـوق لكـن أن يلـج بـاب بيتهـا ويتصرف كزوج لها . انتبه لارتباكها وحيرتها فبادرها :

- أنا سمعان...
- مين سمعان.
- سمعان زوجك...
- سمعان مات...
- يعني أحسن تبقي لوحدك.
- وأنت ما يعنيك..
- ياستي... لا يعنيي شيء" عندك قهوة شاي ... أي شيء ساخن.

انهـدت علـى مقعـدها فـي الصـالة ، ثـم مـا لبـث أن وجـد طريقـه نحـو المطـبخ ، كانـت رائحـة القهـوة قـد تناهـت إليهـا فـي الوقـت الـذي وجدتـه أمامهـا يـدفع نحوهـا فنجـان القهـوة ، فتناولتـه كـأي أمـر اعتـادت عليـه منـذ سـنوات, ارتشـفت قهوتهـا صـامتة فـي الوقـت الـذي لـم يـزح عينيـه عنهـا, ثـم أنهـا قامـت دون أن تكلّمـه وكالمعتـاد نظفـت أسـنانها ثـم مضـت إلـى غرفتهـا ، وحيـث أنهـا لـم تكـن بحاجـة لتبـديل ملابسـها فقـد اندسـت فـي فراشـها, لـم يكـن يومهـا عاديـاً

، حدثت نفسها ، كانت تشعر أنها دافئة وجافة على الرغم من رطوبة الجو ، وامتلكتها رغبة في النوم لايضاهيها شيء, تثاءبت طويلاً ثم ذهبت في نوم عميق. ،

رسالة في بريد الحكومة :

عندما عدت للبيت استطعت أن أسمع صوته في الغرفة الداخلية, اعتقدت حينها بأنه يشارك أحداً ما لعباً مرحاً كالذي كنا نلعبه سوياً... أتذكر ذلك... يومها قلت لي إذا سمعنا أحد الجيران فلابد أن يصفنا بالمجانين, تماماً كنت أسمع صوت المجانين, دون أن أعي السبب وجدت نفسي أقتحمُ باب غرفته كان يحوم على نفسه وحيداً يلعب نفس اللعبة لكن دون أن يشاركه أحد... أتعرف عندما نظرت إليه لم تكن على وجهه ملامح تشي بالخوف أو المفاجأة ، فقط ابتسم لي وطلب مني أن أشاركه اللعب, ساعتها فقط أدركت أنه يشبهك حقاً ، واستطعت أن ألمح في تفاصيل وجهه نفس الآثار التي خلفها زمانك على وجهك وبصراحة أكثر أحسست أنه قريب مني لدرجة اعتقدت أنه أنت و اعذرني لذلك.

لحظتها خشيت أن يشعر بأنه مختلف ، أو أنه كان يلعب وحيداً فلعبت معه, أمسكت بالوسائد كما كانا نفعل غالباً وبدأنا معركة لم تنته حتى تناثر قطن الحشوات في أرجاء الغرفة ، كان سعيداً ،وكنت كذلك ، و هأنذي أخبرك هذا الآن، لأني أخشى أن تغضب مني وتلومني لأنني أشارك لعبتنا أحداً غيرك.

جلسنا على حافة السرير , يجللنا تعب ناعم ، كانت أذناي قد أغلقتا على طنين لم أسمع من خلاله سوى صوت لهاثي ثم استلقيت على السرير شابكة أصابع يدي خلف رأسي وعيناي تمتدان نحو صدري الناهد في العلو والهبوط, أما هو فكان هادئاً إذ تمدد إلى جانبي في الوقت الذي تسيل على فمه بقايا الضحكات ، لم يكن متعباً... كان بلا أنفاس تقريباً.

الحياة تدب في جنبات البيت, الصور تتسلق الجدران مرّة ثانية, النسغ يجري في أنسجة نباتات الزينة على الشرفة وفي غرفة الجلوس, حتى الأشجار التي تحيط بالبيت باتت أكثر خضرة .
فيما مضى أحست بأنها بلا وجود ، وأن حياتها باتت قصيرة بعد رحيله ، لابد أنها أنفقت زمناً طويلاً حتى استشرفت كلماته مرّة أخرى عندماطلب منها العودة للبيت الكبير. وعندما آبت إلى البيت لم يكن موقفها أكثر من احترام لذكرى تلك الكلمات , ومنذ الآن سيتغير كل شيء في حياتها ، لقد كان البيت الطوف الذي عبر به سمعان أمواج رحيله باتجاه مرسى روحها, إنه الآن قابع في أعماقها وعليها أن تعيد ترتيب الحياة من جديد, حافية تمشي على الأرضية البيتونية تسري البرودة في أنحاءها ، تمنحها عقلاً متحفزاً . أجرت مسحاً شاملاً للبيت في رأسها ،الأشياء التي تود استخدامهالأماكن جديدة ، وفي غمرة انشغالها تساءلت إذا كانت الأشياء التي تتزاحم في ذاكرتهاهي نفس الأشياء التي استهلكت سنوات طفولتها. إذا كانت شجرة التوت التي تحدق فيها للتو هي نفس الشجرة التي أظلّت آل سمعان في يوم من الأيام ؟
انسلّت خارجه, طافت في المكان مرات ومرات ثم عادت فصعدت الدرج و أغلقتباب دخولها ، رأت نفسها تستند لمعدن الشرفة المتآكل الطلاء ، غائمةتتناوشها الأفكار ، وإذا لاح لها بعض من سمعان المجنون في الأسفل وجدت نفسها فيه ، وأرادت أن تضرب كفيّها إلا أنها غمرت وجهها براحتيها ، لم يكدرها أن تنتبه إلىأنها لم تكن أكثر من امرأة موءودة بالذكريات ، تبحث في جنبات البيت كمن يبحث عن شيء لا وجود له .
غرزت أصابعها في شعرها ثم قبضت عليه دفعة واحدة و طيّرته للخلف فبدت كأنها خارجة من حلم, ثم ألقت نظرة خاطفة في جنبات البيت, تعالت غيوم وحدتها منذرة بالمطر وهي تتجول في الغرف ،ثم سرعان ما تعالت نهنهات بكاءها, كان ثمة شيء يرسلها إلى البكاء ، لم تكن تعلم ما هو ، إلا أن غبار الألم كان ينسل إلى غرفتها, يجتاز شقوق الجدران والفراغات بين النوافذ ثم يعبق في مساحات الهواء.
في المساء اندست في سريرها تناولت كتاباً فتصاعدت رائحة الورق الأصفر, قرّبته من أنفها فاستهوتها الرائحة الواخزة للحبر وساقت إليها الذكريات ثم إن يدها امتدت تلامس الكلمات برؤوس أناملها فسرترعشة ناعمة في جسدها ، وباغتها النوم ورأته هناك يُسقط ظله خلفه بينما يحزم وجهه بالضوء ، يسوق حماره نحو جذع التوتة, يربطه هناك ثم ينظر في الجهات وينسلُّ نحو الخرائب يزق بوله نحو جدار بارد ثم يختفي, فتجول في الأرجاء تبحث عنه, ترى أثار الحمار وهي تغوص عميقاً في طين البحيرة حيث تنتهي , ثم سرعان ما تلمح طيفه على الضفة المقابلة, كانت مكسورة الخاطر ، ملسوعة بألم الأسئلة ، ثم إن الفضاء منح وجهها نسمة كامدة اللون قدِمت إليها حاملة بضع كلمات منه ، أعيتها حيلتها في أن تكّون منها جملة واضحة.
صرخت به, صرخت دون أن تفهم الكلام الذي تطاول من فمها, أخرجها صراخها من النوم وغادرت سريرها تمضي سريعاً خلف رائحة القهوة, اندفعت نحو المطبخ فلم

تجـده فمالـت نحـو الشـرفة حيـث وجدتـه هنـاك مغمـوراً بصـباح صـيفي مفـاجئ وقـد أعـد ركـوة القهـوة ، غطّاهـا بصـحن فنجانـه بينمـا يعـالج لفافـة تبـغ ريثمـا تسـتيقظ ، ورأت فـي ذلك جزءاً من حياة يومية عاشتها وتعيشها الآن .
لـم يمنحهـا خـوار البقـرة الـذي تمطّـى مـن الزريبـة الخلفيـة لبيـت الجيـران الوقـت الـلازم لتتـابع انغماسـها بزينتهـا، لكنهـا وكالمعتـاد جلسـت قبالتـه بعـد أن ألقـت تحيـة الصـباح ،بينمـا حضـنتها غيـوم التبـغ المتصـاعدة مـن سـيجارته وكمـا تفعـل كـل يـوم امتـدت يـدها لركـوة القهـوة, سـكبت السـائل الفـاحم فـي كـلا الفنجـانين ثـم علقـت فـي المـذاق الرائـع و أوصـدت عينها على لذّة خافت أن تهرب منها.,

تمت 15 / 2 / 2011